الجَـنِـيـن

عنوان الكتــاب: الجَنين
اسـم المؤلــف: ميّادَة صابر الحجّار
الموضـــــوع: روايــة
عدد الصفحات: 180 ص
القيـــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 500 /كانون الثاني 2024 م – 1445 هـ
ISBN: 978-9933-38-466-1

رقم الإصدار	روايــة
1310	303

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتـــف: +963 11 2326985

الإمارات العربية المتحدة – الشارقة
– المنطقة الحرة – مدينة الإعلام للنشر
هاتـــف: +971 506844076

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
@House Ninawa
Ninawa house
ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والتحرير والتحقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني:
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

ميّادة صابر الحجّار

الجَـنِـين

رواية

الرواية الفائزة بجائزة دار نينوى لعام ٢٠٢٣

للعمل الأول غير المنشور

بالتعاون مع موقع رحلة مع كتاب

إلى مرايا نيرون والحجّاج، سارقي الحياة، واهبي الموت.
أهديكُم عملي دُمّلاً، فليسَ مِنْ أملٍ فِي شفائكم.

يدخلُ المَلَكُ على النطفة بعدما تستقرّ في الرّحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقولُ:

يا ربُّ! أشقيٌّ أو سعيدٌ؟

أيّ ربُّ! ذكرٌ أو أنثى؟

فيكتبان، ويُكتبُ عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصّحف فلا يُزادُ فيها ولا ينقص.

حديث نبوي شريف

سوف تصبحُ رؤيتُكَ واضحةً فقط، عندما يمكنكَ النظر إلى قلبكَ.

مَنْ ينظرْ من الخارجِ، يحلمْ، مَنْ ينظرْ من الدّاخلِ يستيقظْ.

كارل جوستاف يونغ

قبل الضّوء (١)

يصيبني الخوف كلّما تحرّكتُ من مكاني، إنّني مخلوقٌ رخوٌ، بلا قوّةٍ، في وسطٍ لزجٍ، لا أجدُ مستقرّاً يورثني السّكينة فوق تلك البطانة الدّافئة، التي سقطتُ عليها سقوطي المرهف الأوّل، والذي كان بلا ضجيج.

كنتُ في يومي العاشر من رحلتي المتدحرجة في أنابيب شعرتُ بها، لكنّني لم أستطع رؤيتها.

مددتُ كلّ جسدي في هذه البطانة الرّحيمة، لأبحث عن مكانٍ ثابتٍ لي، فبدأ سائلٌ أحمر قانٍ يلمع، كلّما حاولت أن أغرس ذاتي أكثر، وَجِلتُ من انهماره الجريء، وتراجعتُ إلى ركنٍ أكثر عتمة، ورطوبة.

لا أعرف هذا السّائل اللّزج أبداً، لكنّ رائحته رهيبةٌ، تحاشيتها بكلّ ما أملك من كيانٍ.

اعتراني صخبٌ مفاجئٌ، وحيرةٌ، وبدأتُ أتأرجح بين قرار اندماجي واندساسي واستقراري في هذا المكان الذي سأكتشف فيما بعد أنّه المكان الوحيد الدّافئ على سطح الأرض، وبين الابتعاد كي لا يغرقني هذا اللّونُ الوقح.

استمرّ عملي المُجهد ساعاتٍ، وتوالت القطرات الحمراء تغمرني، فاعتدتُ وجودها المصاحب لوجودي، وما إن أصبح المكان كافياً لأحشر نفسي، وأستلقي حتى تنفّستُ الصّعداء، فلم أعد أشعر بالاهتزازات المباغتة المزعجة أو التدحرج الماكر، المفاجئ.

نمتُ في حفرةٍ في جدار امرأة، رأيتها من (جوّاتها) لأوّل مرّة، كانت تجلس في زاوية في مكان ما، تتلمّس ثدييها المكوّرين، المحتقنين، وتعاني ألماً فيهما.

حاولتُ أن أتوغّل في حدسي أكثر، فأكثر، لكنّني خجلتُ أمام شعوري بأصابعها الطويلة، وهي تجسّ صدرها مصدرةً تأوّهاً لاحتقانه، وتضغط على حلمتيها البنيتين، اللتين ستطعمانني فيما بعد الكثير من الحليب، والصخب، والحياة...

أطبقتُ على روحي، وعزمتُ أن أحتفظ بكلّ التّفاصيل الشّاسعة القادمة، والصّغيرة التي أعيشها الآن، وقد بدأتُ أنهضُ لوجودي توّاً تجلّلني حماقة كبرى؛ (الحبّ يقتضي منكَ أن تبقى على قيد الحياة، والولاء للحقيقة يُلزمكَ السّعي لامتلاكها كاملةً). أغمضتُ كُلّي - أنا العلقة الوضيعة - متمسكاً بهذا القرار البسيط، لأنضج أكثر..

إشارات العتمة (١)

سقطتُ بعد أن دارت بي غرفة الصّفّ ثلاث دورات، ودارت بي أيضاً خارطة البلاد المعلّقة لتنقلب رأساً على عقب، كما هي منذ عشر سنوات وما يزيد.

هجعتُ على المنبر بعد أن كتبتُ على السبورة بيتاً شعريّاً لعمر أبي ريشة:

لا يُـلامُ الـذئب في عدوانـه   إن يـكُ الرّاعـي عـدوّ الغـنم

تكوّمت من دون حراك، شعرتُ بالطلاب يتراكضون من حولي خائفين، وأسرعوا ليخبروا الإدارة، والموجهين الذين جاؤوا مستفسرين، مسرعين.

حملني اثنان منهم إلى غرفة أمانة السّرّ؛ التي غدت بلا سرّ مثل كلّ الدّوائر الرّسميّة في هذه البلاد التي ضيّعت أماناتها، وبات كلّ شيء فيها مفضوحاً حدّ الذّعر والبكاء.

هناك بخّت الآنسة لطفيّة بضع بخّات من مزيل عرق رديء الرائحة على منديل، وقرّبته من أنفي...

فتحتُ عينيّ الغائمتين رويداً رويداً، بدأت التقاط أنفاسي، وكأنني لا أعرفُ من أيّ نجمٍ أتيت، دوارٌ متعبٌ ألمّ بي، وأوشكتُ أن أفيض بكلّ ما في جوفي من طعامٍ وسوائل، أسرعوا في طلب سيارة أجرة من مكتب الغانم المجاور للمدرسة، وقد قررت الآنسة لطفيّة مرافقتي إلى المستوصف القريب.

كانت فيروز تصدح من راديو (التاكسي): لا تسألوني ما اسمه حبيبي...

قفز السّؤال الشّقيّ إلى ساحة شرودي؛ كيف استطاع نزار قباني هذا أن يؤمم الشّعر، ويدلقه في راديوهات السّائقين، ليوزّعوه في أنحاء البلاد كلّ صباح، من شمالها إلى جنوبها على اختلاف لهجاتنا وبيئاتنا، وكيف بذره بهذا السّحر مثل قمح صباحيّ من فم فيروز، لاشكّ أنه لم يكن يكتب الشعر.. كان يعيشه.

كاد يفضحني القبّاني، أنا المتلبّسة بعشقي، وصمتي ودواري الغريب.

يرفع السّائق صوت فيروز: والله لو بُحتُ بأيّ حرف تكدّس اللّيلك في الدّروب..

يشتغل مونولوجي؛ ألم يمنحنا الله نعمة الحبّ كي نخلّده، أليس الحرمان من الحبّ من دروس الله الحادة ليذكرنا بسبب وجودنا على سطح هذا الخراب؟! إنّي متهمة بتضادي، بصوتي الآخر، وبأني أتحركُ مع قلبي كلّهُ، طالما عشتُ مع روحي، وكأنّها وطني وكأنّ لا أحد إلى جواري:

(اللّيلك؟! أيّ ليلك؟! يا فيروز! أيّ ليلك؟).

أمعنُ في استرداد ما حصل معي، منذ ضجيج أنوثتي الأول وحتى الآن، لم يكن دربَ خطأ، بل دربَ خلاص، ذلك الذي سلكتُه، صوّبتُ روحي نحوه، هكذا ببساطة، ومن دون فلسفة.

أنا، وعلى مدار أعوامٍ مضتْ، كنتُ امرأة بوجه واحد، ونيّة مشرقة، وتيهٍ خاصٍّ بي وحدي، لم أثقف قلبي على ما أنا عليه الآن؛ من ريبة وكركبة.

في عُرفي؛ لم أذنب، هكذا كنتُ أقنع نفسي دائماً، لقد اخترتُ فقط أن أحبّه، وأمضي في جنوني معه حتى الأقاصي، فأعلن قلبي عليّ العصيان.

سألتني الطبيبة في المستوصف فيما إذا كنتُ حاملاً قبل وصف أي دواء لي، فأجبتُ مُستردّةً روحي من شرودٍ جميل، وشوق هازمٍ بأنّ

دورتي الشّهريّة متأخرة عن موعدها اثني عشر يوماً، فاعتذرت الطبيبة عن أيّ وصفة طبيّة قبل إجراء اختبار الحمل...

عدتُ إلى بيتي في الثانية من بعد الظهر، شكرتُ لطفيّة التي أسرفت في لطفها ومعانقتها لي، وتمسيدها لظهري وشعري وكتفيّ، بكفّ ذات أظافر طويلة، وإصبع وسطى مقصوصة الظفر مثل لغز يشتهي حلّاً.

كنتُ في نظر لطفيّة امرأةً جميلةً كغواية الفرح.

أنا بتول - غواية الفرح - أبدو مشوّشة الذّهن، لائبة القلب، يجتاح معدتي الغثيان، ويكسوني التعب، أحاول اغتيال الشّك في حملي عن طريق جهاز بحجم إصبعين اشتريته من الصيدلية أثناء عودتي إلى البيت.

رميتُ كاشف الحمل فوق ديوان يحمل عنوان (قصائد مغضوب عليها)، ودخلتُ في ورشة لإعداد جنون يليق بأمنية شرعتْ تتحقق للتو.

بعض الكتب تحمل عناوينها لتُقرأ؛ لتكون شركاً يوقع بالقارئين، أهمس لنفسي، أشهق وتتسع عيناي مدىً:

خطان أحمران، داكنان!!

هذه المسافة بين مخاتلة الحقيقة وإذعانها مهمة جداً في بحثي عن خلود من نوع مميّز، لم أعد الآن أكابد وجودي الإنسانيّ لأخلق أثراً، هذه الرّهبة في الخطين الأحمرين تعرّش فيّ ترقباً ثقيلاً، ونديّاً في آن، وتؤكّد حقيقة أنّني سأبقى حيّة في جنيني ما شاء الله لنا البقاء.

ابتسمتُ على قلقٍ وخوفٍ؛ أنا حاملٌ إذاً أنا موجودة.

قبل الضّوء (٢)

استيقظتُ على بكاء هذه المرأة التي غرستُ ذاتي في جدارها، كنتُ قد ألفتُ هذه المساحة المشعة دفئاً، المحيطة بي، واعتدتُ صوتها هامساً رقيقاً، جميل الرنين واليقين على منبر الصّفّ، لكنّها الآن تنشج بصمتٍ، وأنا أشعر بجوعٍ قاتلٍ، وظمأ شاملٍ يمتدّ بقسوةٍ في كلّ أنحائي.

سمعتُ وقع خطواتها، توجّهتْ إلى المطبخ، صوت الماء يغدقُ في مريها، يستنطق نكهة الحياة، ويحميني من عطشٍ يتربّص بي. ما أجمل صوت الماء!

كأرض لوّعها القحط تأهبتُ لتلقّي دفعةٍ من المطر الذي أشتهيه؛ أن ترويكَ امرأة بهذا الفيض من الماء، ساعة عطشٍ، هو أكبر عطاء ربانيّ قد تناله.

هكذا كنتُ أحاور حاجتي منذ النّفحة الأولى، دون أدنى رغبة في الضّجيج أو العراك لتحصيل مائي؛ إنّني ومنذ البدء رهينةُ عطشي.

ترهبني حاجتي إلى الماء، وأسيل وجعاً كلما عزفتِ هذه المخلوقة التي تحتويني عن الشرب.

لم أكن أعلم كم مضى على انغراسي الدّموي الأول في جدارها، كانت امرأة باهظة الثقافة والجمال، تقرأ كل الوقت وأسمعها، لكنّني شققتُ قشرة روحها، وصرتُ حنجرة بوحٍ، وسماء استماعٍ، ستؤهلنا للبقاء معاً ككائنين متّصلين، ثرثارين، مجنونين في زمنٍ رديءٍ، وظرف خشنٍ يلتحف بنوّتي، وما تستدرجه في وقتٍ لاحق.

ما إن شربتِ المرأةُ الماءَ حتى تضخّم جسدي بعد نومي الطّويل، وبدأتُ أشعر أنّ أجزاء مني تغادرني؛ انفصمتُ انفصامي الأوّل، غادرني جزئي ومدّ لي خيطاً رفيعاً، كأعطيات الأغنياء للمحتاجين، سمعتُ الخيط يتكلم، يقول لي: إنني لكَ.

أدركتُ أنّني كائن أعزل من دون هذا الأنبوب الذي أمدتني به المرأة وجسدي معاً، وأيقنتُ ما يتوجّب عليّ من قتالٍ لأحظى بنصيبٍ من الكون يليق بعاشقين، أرادا لي الوجود بكامل جموحهما، نصيب لا يكون لماماً كهذا الخيط الشّحيح، الذي جاء من بعضي وجدار المرأة. ولو قيّض لهذه المرأة أن تختفي، فإنّني سأخترع أخرى، لأنني ناصل الرّوح من دون امرأة تحتويني.

صرتُ أتنسّم شميم كفّيها، وهي تكتب رسالةً بالنقر على شيءٍ لا أعرفه، تكرّس نمط حياة ما، تجمّل وجه الوقت بالصّمت والنقر؛ مداً وجزراً، هذه السّريّة الفادحة هي أجمل ما أعيشه معها، كانت تماثل ترفاً يليق بي، ويحملني إلى آخر مدىً للجذل ويزرع بي قناعة غريبة بأنني منذور لحياة عظيمة.

سمعتهم ينادونها بتول عندما سقطت إلى جوار خارطة البلاد. بتول؛ اسمٌ يستحقّ الحياة، ومأزقٌ بحدّ ذاته، لأنني تشكّلتُ في بطنها من حكاية ستوثّق لا شرعيتها، ونزفها معاً.

كنتُ أتضخم في جدار بتول، خالياً من كلّ الخطوط الأوّلية الملحاحة لتكوّن آدميٍّ، وهي بتول كان قلقها ينغلُ تحت جلد صمتها مثل سرب نملٍ.

تنسى في غمرة انغراسي في داخلها أن تزوّدني بغير أبجديتها، أبجديّة نورانيّة، ساذجة، تطعم الأمل والهبل، ثم تتغوّط ككلّ الفقراء خيبةً وخَرساً كما اكتشفتُ فيما بعد.

سمعتها تكلّم أحداً، ربما كان آدمياً مثلنا، لم أكن أميّز نوع من تكلّمهم، فهي تكلّم الشّجرة، كلب جدّي ممدوح، صوراً ورقيّة، تكلّم أصوات المطربين، ذاكرتها، حواف الكون عندما نقف على حافة (المطخ) تلك البركة المائية الواسعة المتاخمة للضيعة، وتكلّم زوايا البيت، لكنّها تكلّمهم جميعاً بعفويّةٍ عذبةٍ، تنقلها معها إلى كلّ مكان.

تبرع في تقفّي الفرح وإعادة تشكيله ليكون بسيطاً في متناول فهمي البِكر.

تخبر هذا الآدمي أنّها حامل بي، فيرسل خطوطاً غريبةً، متداخلةً، وعارمةً.

لا أفقه شيئاً مما يدور حولي، كنتُ أغبى شرغوفٍ زُرِعَ في رحم امرأة.

لا أعرف أبعاد المأزق الذي أنا فيه، لكنني أحتمي في رحمها، وأنتظرُ، أسمعها تهمس أمام الشّاشة المضيئة:

- يا الله!... ليس معقولاً!

أدركُ من نبضات قلبها الرّاقصة أنّ ذلك الآدميّ الذي يحترف الحياة والعشق جَذِلٌ لوجودي، فهذه الشّهقات المخمورة دهشةً، وفرحاً، والتي كانت تقرؤها بتول، هي كلامه هو.

نمتُ على حلمٍ، في مملكتي المظلمة النديّة، إنها المحبّة هي ما اختبرته للتو، بين بتول وذلك الآدميّ، ولأوّل مرّة في حياتي، وهي ما سأختبره لاحقاً، وألاحقه في كلّ آنٍ، وأعيشه متناغماً مع بتول بمهارة بالغة الدّفء والحضور.

قُطِع التّيار الكهربائيّ، فرقَعَ صوت بتول: لعنة الله عليكم.

أطلقتْها من دون مواربةٍ، لم أكن أعرف من (عليكم)، بتول لا تلعن إلا بمقدار ما تتألم، عندما يصيبها الضّيق، وعندما تصاب روحها بكدمة،

لكنّني سأسمع هذه اللّعنة البتوليّة مرافقةً لي، فبتول اعتادت لعن من يقطع الكهرباء، والساسة، والحكومة العاجزة، والثّورات بمعتركاتها الخادعة، والمُضلّلة، والحاويات التي تدلق مرضها على الشّارع العام، والفقر، والموت على حدّ سواء.

ضحكت روحي - ليس ثمّة فم لي، لي أمّ وارفة الإدراك لجبروت السّلطان، ورغم ذلك تلعنه، تجرّ خلفها تاريخاً من الحبّ والبراءة – يمنطقُ كلّ شيءٍ بمنطقه الاستثنائي، وعدتُ خائفاً إلى غفوتي الجديدة الآمنة في جدارها.

لمستْ بتول بطنها، شعرتُ براحة يدها، ضمّت وجودي ببسمةٍ آملةٍ، لقد بدأتِ الحياة تعلن لي أنّها لن تجافيني.

إشارات العتمة (٢)

مرّ الشّتاء الثّالث على رجع الحنين في قلبي، أفكّر كثيراً في كلّ حبات الكرز التي أطعمتُه إياها، وفي المصادفات الشّرسة التي جمعتنا، رجلاً وامرأةً - لا حدود لشغفهما –صوّبتهما الحياة باتجاه الحبّ، ففي البدء كان الحبّ..

في حمّى سعير العشق الذي يحاصرنا، والجنون الذي نتهيّأ لنركبه علّمني كيف أكون جذّابة لا مغريةً، كيف تكون أنوثتي أماناً ثابتاً وامتيازاً، وليست فرحاً متذبذباً ونقمةً.

علّمني أن أهجر الأماني لأن الأماني إفلاس، والعمل فقط هو الحقيقة الناصعة التي تستحق الإدراك والإيمان والإخلاص، علّمني أن أسأل عمّا ينقص الرجل بالقياس إلى المرأة، وليس العكس، علّمني ألّا أمضي عمري باحثة عن أسباب براءتي لأنني امرأة بمشيئة الله جئت بل أن أتقدم بمشيئة إرادتي وحريتي وثقتي وانطلاقي.

هو من جعلني مؤمنة بأنّني كلّ يوم أنا أنثى مبتدئة في الحب، وجبّارة في التحدي، وأنه لا يجوز أن أشعر مثل تسعة أعشار نساء هذا الكوكب المجنون بالدونية والحصر وتعذّر التلقائية والإثمية لمجرّد كوني امرأة بل أنا أنثى ملائكيّة تحرّض الحلم والخمر، وتلعثم المراكب، وأنه عند الموت وفي نهاية لعبة الحياة يوضع الرجل والمرأة في صندوق واحد، لكنّني أدركت معنى كلّ هذه المسلّمات متأخرةً، فصار البرد ينهب صخبي، ويؤجج سقم زواجي.

أستحضرُ ذلك الدّوار اللّذيذ الذي غمرني، عندما اقترب مني، فأنّيتُ كتفاحة حرون تجيد السّقوط على إيقاع النّشوة.

في عزّ ربيع ذاكرتي تزدحم نكهة أصابعه على خصري وفخذيّ، هي ذات اليد التي يرسم بها لوحاته الإعلانيّة، المميزة والمبتكرة دائماً، وذات اليد التي يكتب بها قصائده، ورواياته، ويمسح بها لعاب ابنه سعد، منذ أحد عشر عاماً.

كان يبذر لهفته، فأرمح حتى تخوم اللوز، والانعتاق. ثمّ أفتح عينيّ على شاشة جهازي المحمول الباردة، وفي بحّة صوتي مشروع غيمٍ لبكاء عنيف قادم، فيهمس:

هسس، يا مجنونة، لا تبكي ((أحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربّه)).

قبلَهُ كنتُ جائعةً، قلِقةَ ارتواءٍ، حاولت كثيراً باسم فضيلة النّسيان أن أنساه، وأنخرط في معيشة عذراء مثل كلّ النساء في بلادي، تطحنهنّ الرتابة ويتلذّذ بهنّ الصّمت، لكنّها المصادفة المُدللة، والسّخاء الإلهي، أحضراه لي عبر فضاءٍ افتراضيٍّ، ليعود إلى مدارات حياتي من دون حسبان، فصار من بعده الخصب أملاً حاضراً مرافقاً لكلينا وعلى مدار الوقت.

تلك المرة كانت المرّة الثانية التي أمشي فيها أمامه، مزهوّة بجاذبيّة ناضجة، أكمل رقصتي الثانية معه على شفا اندماجٍ، في شقةٍ دخلتها قبل زوجته، التي طالما رأيتُها متعجرفة، جافة، وقبل أن تنقل إليها أثاثها الثمين الذي استوردته من تلك الصحراء البعيدة.

جعلني أمشي حافيةً في غرف المنزل كلها، وأنا أضحك ليصبح المكان جديراً بالسكن، لتفيض فيه جزالة الحياة من قدميّ، في محاولة استباقية ليبارك منزله الجديد بأثر امرأة يعشقها وتعشّش في داخله.

ليس ذنبه أنه امتلك روحاً ولغةً طاغية الفتنة، وروحي كانت تعبد اللغة بكل مصائرها وتشكيلاتها وكوارثها وطقوسها.

لم أستطع في اللقاءين أن أواصل صلاتي لأطفئ جمرنا معاً.

كنتُ أتوقّف من سُكرة روحي، أصوّب عينيّ الثّملتين تجاه قلبه، وبصوت متقطّع أخبره:

- كم أحبّك!!

نوبة لهفة صريحةٍ، باهرةٍ، تغسلني، أبكي من فرط شوقي وارتباكي، فيغمرني بحضن أكثر وفاء من كلّ الأحضان التي عرفتها في حياتي:

- (يا أهلي أنتِ، تعالي؛ أتقاطر بين ذراعيه ألف امرأة).

هذه اللّجة صارت نقشاً منحوتاً على جسدي الذي يعلن أنّني له وحده، وسائر الرّجال عابرون.

...

أجهّز حقيبتي للذّهاب إلى المدرسة، أستنطق مفهوماً جديداً لذاتي، واسماً صار يليق بي وبقصتي.

من أنا؟ أنا بتول ممدوح العبد؛ امرأة تعشق فخر تاج الدّين، ومنسكبة في كأس روحه حدّ التماهي، هذا هو نشاطي العمريّ الوحيد الذي أعتبره ذا قيمة.

لم أكن أفكّر أن أُلحق بي أيما صفةٍ تدلّ على انسلاخ خُلقيّ يصيب منظومة قيمي وما تربّيتُ عليه، كنتُ أراوغ كي أجعل هذا الجرم بعيداً لا يطال حتى أطراف روحي، أيّ امرأة حمقاء أنا! تسير إلى اندثارها من دون قلقٍ.

طالما شعرتُ بإقصاءٍ مرّ، لم تزل مرارته تتأرجح بنياط قلبي؛ فبعد فرح الذكرى وإحياء اللقاءات في الذّاكرة المُقيمة، يقفل فخر كلّ وسائل التواصل معي، أفقد همسه كليّاً عندما يدخل إلى بيته، فيعيد هذا الترك بنائي ممتزجةً بخبرة انتظار جديدة.

أحاول إقناع نفسي أنّ لشركائي - أي لزوجته - كلّ الحقّ لتستمتع بالنعيم الذي اسمه فخر، والذي كنتُ معه منذ قليل.

ضممتُ صورته على شاشة هاتفي المحمول، غبتُ كحلم مقهور مع ملفّ إلكترونيّ؛ فيه روايته الأولى.

أنا الأمّ لكليهما؛ له بروحه وضوء عينيه، ولروايته بحرفها المشاغب، ووهج حضوري فيها - بتول الحبيبة - في كلّ نساء الرّواية، وفي امتداد أحداثها.

أدرك تماماً هذا النمط من القدر المعاند، فأحمل شوقي فوق كتفي روحي، وأمضي أحاور هذا الغياب البليغ، وأدعو الله كي يجد الهدوء إلى نفسي سبيلاً، فتصطدم عاطفتي كلّ مرة بواقع قاسٍ كالموت، يتركني مشرّدةً؛ لا أنا منتمية لحلمي برهافته وجماله ولا شرعيته، ولا أنا منتمية لهذا الواقع بفجاجته القبيحة وبرده الجهنميّ.

أقفلتُ شبكة الاتصال، ومضيتُ متعلّمةً

(ألّا أحبّه أكثر، كي لا أتألّم أكثر).

إشارات العتمة (٣)

مع كلّ إجازة لرضوان ينبق وجعي كفطر سامٍّ، أجمّله كي لا أبقى في نظر نفسي بتول الذّبيحة التي تشبه بلادها. تخيفني هذه البلاد؛ التي ضاع الكثير من شبّانها منذ أعوام بين موت وهجرة، يرعبني البحر المتاخم الذي شارك بدوره في قيادة مصائرهم نحو هوّة العدم فبلعهم إلى قرار عميق، ولم يزل حتى الآن.

تقهرني الجبال وهذا الوعر الذي أنتمي إليه، وعري الذي يؤمن بالتقمص، وأنا التي أحلم أن يكون نصيبي الفسخ؛ فتحلّ روحي في وردة جوريّة أو فراشة بهيّة الألوان تطير دون قيد أو شرط أو ربما كان نصيبي الرّسخ فأكون طاولةً أو حتى صحناً تستبيحهُ كلّ طيّبات الطعام وليس الآدمية، لقد أصابتني متناقضات وعري الفارغة هذه بالخفوت، أشعر دائماً أنني برائحة مختلفة لأنني أنتمي لطائفتي انتماء البطة السوداء لسرب بجعات بيضاء.

يمتدّ صمتي هاجعاً، مختبئاً من جنوب غرب روحي، حتى شمال شرق قلبي المخُدّر بإرادتي.

هذا القلب يعزّ عليه أن يشوّه صباحي الجميل مع فخر، الذي لم ألتقِ به - بعد غياب مُرّ وطويل ومحاولات شبه انتحارية في النسيان - إلا مصادفة على مواقع التواصل الاجتماعي، فصار كوني الكامل، ومركز دوراني، وحياتي الحقيقيّة التي أعيشها بكلّ ما لديّ من مساحات صدق مفرودة في روحي.

كيف أخبره - وهو الحبيب واستراحة المحارب الوحيدة الغضة دائماً - أنّ الله وفّر أنواع موتٍ باذخة، ولم يترك لي مكاناً شاغراً إلا الموت مضطجعة على سريري، وأن هذه حالي منذ أكثر من عام.

باغت رضوان شرودي في إجازته الأخيرة تلك، طالما كان له صوت الغريزة وليس صوت الزوج أو الشريك:

- يا لطيف ما أجملك!!

لكلامه رائحةُ شبقٍ عنيفٍ، ولعرقه سطوةٌ راغبة، تكفي لمعانقة عشر نساء دفعة واحدة.

استطالت يده، وأنا لم أعد بتول، لا أحمل من اسمي إلا رنيناً لا يُغتفر..

صرتُ أمارس النّفاق بأعلى مستوياته وبإخلاص متناهٍ..

منذ أن خذلني فقر فخر المدقع، منذ أن يسّرتْ له إحداهنّ هجيجاً صحراوياً، ليهزم أكمام كنزته القصيرة غالباً، ورقع بنطاله الممزّق؛ طالما كبر ولم يكن يحظى بما يستر نموّه إلا بثياب قديمة كان يتوارثها هو وأخوته بعضُهم من بعض.

أخطأتُ في تمثيل دوري في فراش رضوان هذه المرّة، أظهرت رغبتي بالخلاص من معمعته الجسدية؛ إذ لم يكن ليأخذني مرة واحدة كحبيبة بل كجسد يشبه سائر أجساد النساء اللواتي استباحهنّ عبر سنوات وقد صرح لي بذلك من دون تردد أو خجل.

أخطأتُ التمثيل بكلّ جدارة فازداد رضوان هيجاناً وغضباً.

رضوان الذي لا يصدر أمراً إلا إذا كان على يقين من تنفيذ طاعته، والذي يدير كلّ معارك الجسد كما يشتهي هو.

يفترش نهديّ بغريزة تُغيّبُ عقله وحسّه الإنسانيّ، أرتعش كطفلٍ عبثوا بألعابه، تشهق عيناي صارختين: من أين لي بلباسٍ جديدٍ لكلّ هذا الوجع؟

أدرك أنّ هذه الاغتصاب يعادل الموت في ذلّه وسطوته، ويخون جنوحي نحو الرضا والسّلام.

في هذه الليلة الليلاء- من إجازته الأخيرة - كان صوت اليأس مسموعاً كقدرٍ.

انقطع رضوان فجأة عن لهاثه؛ ظنّنتُ أنّه سيخلد إلى نومٍ عميق مثل سمة وهويّة ترافق كل أنواع الجنس في هذه البقاع، لكنّه رجع إليّ ليزرع عنقي بعزفٍ همجيٍّ؛ أبتسمُ بخوفٍ، يغالب هدوئي المفتعل، فيضحكُ وفي عينيه عواء.

يدسّ رأسه تحت إبطي، يستعدّ لنوبة رقصه الحادة.

يعضّني فأتأوّه، وكأنما عضّني من عنق قلبي.

فكّ أزرار قميصي، بدأ زيارته الميدانية، مع كلّ خطوة آه، ومع كلّ آه يتفتّح جسده عطشاً متمادياً، يسقط على بطني، ينزع قميصي، فأصير كلّي في مرمى مذاقه الشّره؛ أطبقتُ شفتي على راحة كفّي، لينطفئ وجع روحي (المُشرعن) في أعرافنا وضمن مؤسسة الزواج المهيبة.

أردتُ أن أقول له: إن ما يقترفه بحق جسدي جريمة، واغتصاب وليس فيه أيّ شيء من العِشرة الطيبة وما يقولونه عن الرفق بالقوارير، لكنني لم أنبس بكلمة، أتثور امرأة مثلي؟

كنتُ خالية منّي، لا أقوى على النطق، يشعّ في جدار ذاكرتي شطرُ شعرٍ ثبّته على السبورة لأعلم الطلاب على فعل الأمر.. (فدعي الرّماح لأهلها وتعطري)، وكأنه منذ الأزل تمّ إعدادنا لهذه الوظيفة.

أنهى رحلة سطوه على كلّ التواء في شراييني، تلوّيتُ، خارتْ روحي، انتهى، ولم يلتفتْ إلى حجم الخراب الذي تعرّضتُ له، لا أذكر مرة احتضنني أو لملم جسدي بعد أن شبع منه بين يديه، كان يعيش جنساً خالصاً لذاته.

ظلّ قلبي شبه معطّل حتى ظهيرة اليوم التّالي.

أعلم أنّ فخراً ينتظرني، ابتعدتُ عامدةً، فأنا المجروحة أحتاج وقتاً لأشفى من اغتصابات رضوان الجنونيّة، وأحتاج أعماراً لأدفن ذلّي وانكساري مع رجل - درّب نفسه على جنسٍ عنيف لا يرتوي، دون سبب واضح - في قبر مغلف بالرضا.

تنهّدتُ: لم يعلّمك الله يا بتول كيف تراوغين روحك، وتستبدلين بها روحًا أقلّ خطورة إذا ما لوّح الطغيان، لم يعلّمك الله كيف تقولين: لا، لرضوان المُغتصِب، لم يعلّمك إلا الاستسلام بطلاقةٍ، والموت بعفويّة وبراءة الأطفال.

بدأتُ أسلّي نفسي بصنع صينية (الحلاوة المُلبّدة)، أرشّ السّمسم دوائر على الطحين المعجون بالدّبس.

دوائر كثيرة لنساء كثيرات، يدرنَ مثلي، ولا تطلّ رؤوسهنّ خارج حدود الصينية.

نظرتُ إلى السّاعة؛ السّادسة مساءً، ستتلف أعصاب فخر الحبيب، توجهتُ إلى جهازي المحمول، أضاء الفرح شاشتي، طالما شعرتُ أنّ هذا الجذل الطريّ، والفقر اللاذع، والصّدق، والحرف؛ هي أقانيم تبني بيننا قرابة روحٍ وليس قرابة دمٍ، قرابة من نوع فريد، ومختلفٍ.

نحن أولاد الفقر بلا منازع، قرّاء الروايات، أولاد الغربة، التي امتصتْ من عمر فخر ما امتصت من عمري أنا. وربما أزيد، وإن كانت غربتي داخليّة الأبعاد، لكنها ضاربةٌ في ذاتيتها ووجعها.

وجدتُ قصيدة له عاتبةً، متلهّفة.

كرجت دمعةٌ على خدّي الشّاحب، كتبتُ رسالةً، تركتها له، أغلقتُ شاشة الحاسوب، فصلتُ حواسي، ومضيتُ.

قبل الضّوء (٣)

سقط ظلّ كفّها السّخيّ عليّ، عندما مدّتْ بتول يدها إلى بطنها، ارتاحتْ لوجودي معها، لا أعرف أين نحن، لكنّ أمي تلقّت اتصالاً هاتفيّاً من جوريّة، تخبرها فيه عن إصابة سميح؛ الذي سأعرف فيما بعد أنّه عمّي.

هذا البناء الضّخم الذي نحن فيه الآن يشبه ذاك الذي ترمح صورته في كياني، لا أعرف، هل يُعقل أنّني أمتلك ذاكرةً مثل بتول، وأنا لمّا أزل في مقتبل وجودي؟!

لكن أين أحملها، كيف تحضر صورة الأماكن فينا بهذا الإلحاح وهذا السّطوع؟

ذلك المكان يجوس خاطري كلّما غفوتُ، يعكس صخب فخر المموسق، الذي غزا به روح بتول، قبل أن تنبق روحي، وأُزرع (جوّاتها). كنتُ قطرةً شقيّةً في أنبوبٍ بلاستيكيٍّ، أشعر بي، تعلو ملامحي دهشةٌ نشاز، يحملني فخر، ويركض باتجاه البناء الصّرح، تفاصيل المكان تشبه الضباب، في أعلى الدّرج يستسلم فخر لنشوة عناق جسده بجسد بتول.

مدّ يده الدّافئة التي تحملني في الأنبوب، وسلّمه لبتول، التي روتْ لي لاحقاً أنّها دسّتْ الأنبوب بين نهديها، ليحافظ على حرارة جسد طبيعيّة، وطارت تحملني كفراشة إلى طبيبتها.

كان صراخ الطّبيبة - وأنا في الأنبوب بين يدي بتول - يصلني عظيماً مع صدى مخيفٍ، يرتطم بالعبوة البلاستيكيّة من الدّاخل، فأشعر أنّني سأظل مقفوصاً في هذه العبوة هنا إلى الأبد.

تقول الطبيبة: إنّ العيّنة هزيلة، ولا تكفي للحقن. لا أعرف شيئاً عمّا يتحدثون، أعرف أنني سأبني روحي خلية فوق خلية بذوب قلب بتول وبضجيج خوفها وبفرحي الأهبل.

تصرخ بتول بصوت جارح:

- أنا أتحمّل النتيجة، لا أريد أن تضيع فرصتي، ساعديني.

- هذه ليست فرصة، نسبة حدوث الحمل مع هذه العينة أقلّ من خمس بالمئة، إضافةً إلى أنّها لا تتحمّل الغسل والمعالجة، وقد يؤدي حقنك بها إلى إنتانات حادّة، أنتِ في غنى عنها. كانت تجيبها الطبيبة بهدوء.

سمعتُ صوت بتول وتضرعها لتمنحني حياة، شعرتُ أنّني أُحمل مع ملايين مثلي، ويتمّ ترحيلنا إلى جوفٍ مظلم، حُكم على الكثير منا بالسّقوط العدميّ في حيّز رطب، منذ الدّفقة الأولى، فلم أعد أشعر إلا بوجود القليلين من حولي، يشبهونني كثيراً في ذاك العالم المحتشد بالعتمة والأسرار.

لم تكن تعلم تلك الطّبيبة المتوترة، الصّارخة، أنّني جئتُ من ذلك الآدميّ فخر، الذي يرقص في دم بتول، من الوريد إلى الوريد، وأنّ وجودي هنا يفخّخ لحكاية واسعة، وسُنّة بيولوجيّة تؤسس لاستمراري؛ لم تكن تعرف أنّني السّكين الوحيدة في يد بتول المربوطة بحرمانها من طمأنينتها مذ حرمها القدر من فخر حبيبها، كل ما تعرفه الطبيبة أنني سائل من أبي الذي رفض القدوم إلى العيادة، ورفض أن يعطي سائله الوجودي في مكان غير بيتنا.

على مسافة زمنٍ قصيرٍ لا أدركُ أبعاده، كانت بتول مهرة بشقاوة البيادر - هذا ما سأقرؤه فيما بعد في دفاترها التي حفظتْ فيها كلّ رسائل فخر وكل أسرار الحكاية - تراقب اندساس حياتي في جسدها

محققة فوزاً مشروعاً في منظورها، فقد تمكّنت من زرع بذرة فخر في حماها، في إجازته غير المحسوب لها، لكنّه فوزٌ مُنتهكٌ لإنسانيّتي الوديعة، فالحملُ من فخر بهذه الطريقة الجهنمية يجعل عشقها لا يشبه الخطيئة، هو ليس حمل الشّبق والشّهوة الرّخيصة، ومن الممكن إظهار هذا الحمل كما لو أنّه من زوج شرعيّ، لن يناله شكّ، كتغزّل المتصوّفة بوجود الله الذي لا يطاله قانون ولا تحاسب عليه سلطة.

هكذا أفهمتني، واقتنعتُ بالمبدأ، وبقيتُ مخلصاً لقصة عشقها التي أوجدتني، وروّضت عاصفة تعنّتي، وذكورتي الشّرقيّة، ربختُ في أحشائها أسطورةً فرديةً تخلص لشرف المغامرة ولجنون العشق والمقامرة.

راحت تهيئ روحها لحكايةٍ كاملةٍ، غير قابلة للنقاش، سنكتبها معاً، كبذرة نادرة تسقيني بإقناعها المتواصل لي بأنّني حياة رحيمة، أُهديت لها ولفخر، وبأنّ وجودي محض ولاء للحبّ، ولاء جعلني جريحاً على نحو صادم فيما بعد، وجعلها تجهز عليّ في كل لحظة تبكي فيها حتى التعب لأنها تحملني خطأً بيّناً(جوّاتها).

إشارات العتمة (٤)

داخلي غفا جنيني، وأنا أجلس في قاعة الانتظار، في المستشفى الوطني العام، إلى جواري جوريّة؛ أخت رضوان، التي غفت بدورها، ورأسها على كتفي، بعد أن أخبرنا الطّبيب المناوب أنّه سيجري العملية لسميح، حين يصل الجرّاح من دمشق، وأنّه لن يستيقظ حتى وقت متأخر، وسيبقى في غرفة خاصّة تحت المراقبة...

تفحّصتُ غفوة جوريّة الطّفوليّة، البريئة، كيف تغفو وسميح ينتظر خبر نقصه الفاجع عند صحوته؟!

جوريّة العمّة المجاز لجنيني، أربعينيّة، سمراء كالحنطة، لا تنفكّ تلعق شفتيها بإفراط كلما تحدثنا، فضّ الزّمن رونقها، وتركها - بعد موت أبويها، وسفر رضوان، وغياب سميح المستمر في المعارك - وحيدة في عرض البيت، تؤنس وحشتها الآنسة لطفيّة، ثمّ تلحّ في تمضية الأوقات معها.

كنت أستهجن هذا التّلازم بينهما، لكنّني لم أرجعه - لصفاء سريرتي ربما - إلى أبعد من كونه تلاصقاً لوحيدتين في جبّة وقت متسع للقلق وللخواء، لذلك لم أكن لأتوقّف طويلاً عند مهرجانات الفرح وهي برفقة لطفيّة، ولم أنتبه لغرفة جوريّة المليئة بالدببة الحمراء وقلوب الحبّ المحشوة بالقطن والشموع بأشكالها المختلفة. كانت غرفة يتلظّى فيها عاشقان وليس صديقتين.

أما أنا فعلى الرغم من كلّ ما يحيط بي من أعراس، لم أكن لأتأخر عن موعد لقلبي - حقيقة أو خيالاً -

فأعيد ترتيب المعنى بكامل دهشتي، وأكتشف أنّ هذا الشعور في خافقي يشبه وطناً ناقصاً، لا أستطيع أن أبوح فيه بكامل جوعي للمقامات على اختلاف ألحانها، ولا أستطيع أن أعزف لحناً واحداً بمفردي، وأنا متوحّدة بفخر؛ الذي يرقص رقصة زوربا الشهيّة في كلّ حجرات قلبي، ليرمّم ألف كسرٍ وكسر.

أضع وشاحي على كتفيّ جوريّة، تبتسم لي، ماسكةً يدها اليمنى التي لا تكفّ عن الارتعاش، ثم تعود إلى غفوتها الوادعة.

نظرتُ إلى هاتفي المحمول أكثر من مرّة، أعلم أن (فخر) ينتظرني، لنصل إلى حسمٍ يخصّ الجنين، وبداية تليق بموسمَيْ شغف وخوف جديدين.

وقد صرّح لي أنه طالما سأل نفسه: كيف سأنجب منه، ونحن البعيدين حتى تشنّج الآه؟ كيف وافق جنوني، وأنا الملكة الزوجة والعروسة بعد؟ كيف سيمضي قدماً، وقد اختبر أبوّته لطفل مريض منذ أحد عشر عاماً إلى عمر غير مسمى؟

هل يصدّق أنّه وافقني هستيريا الحبّ، وهو فخر الحكيم بعيد النظر، المسكون بالتعقّل؟

واعترفَ بخجل في محادثاتنا بأنه كان يعوّل على صعوبة حدوث الحمل بهذه الطريقة باهظة الجنون، لم يكن يرغب في جرح طعم الحياة الذي أردتُه لقلبينا، ولم يكن في ذات الوقت على استعداد ليضرج روحه بهذه الجريمة النكراء، بينما كنتُ في أبهى لحظات إيماني وقوتي عندما طلبتُ منه ذلك:

(ليكن هذا الجنين، ليروِ أملي من حياة أراها تغتصبني، وتغتصبكَ)؛ هكذا قلت لذاتي وله، وبكيت مستسلمةً لحلم جميل، ورجاء شعرتُ أنّه لن يخون.

رسالة واحدة وسأصمت بعدها حتى يعود لكلينا الهدوء:(هذا البيبي إلي، راح عيش معه وإله؟؟ يا فخر، ما راح أتنازل عنه).

أرسلتها، وأقفلتُ هاتفي المحمول. حررني قراري المطلق هذا من دكتاتورية الخوف، سأمضي حتى النهاية.

عدتُ إلى قضم الوقت إلى جوار جوريّة النائمة، وسميح الشاحب كأمل يتفرس في كلّ اللحظات، كلاهما لا يعلم شيئاً عن حملي حتى اللحظة.

أنا الأم المقبلة لطفل ينتمي إلى عالم القلق والحرب والخطيئة، أمدّ راحتيّ كحكاية ساحرة، أحاول خمش جلدي، الهدير الصامت لجنيني يشعرني بفرح غريب، أقف، أمشي حتى غرفة سميح المكتظة بالمصابين، أستغلّ غفوته، أرفع الغطاء عن ساقه المشبعة بالعشرات من الشظايا الدقيقة، منذ رأيتها في المرّة الأولى علمت أنّ عمليات نزع الشظايا لن تجدِيَ نفعاً، وأنّ هذه السّاق التي تعفّنت مصيرها البتر حتماً، وأن هذه المدينة دمشق الياسمين أكلت ساق ابنها وروحه ولمّا تزل تمارس رقصتها الدموية الحرة مع الحرب اللعينة.

عدتُ لأجلس إلى جوار جوريّة التي هي في يقظتها تشبه جوريّة في غفوتها، لكنّها لا تشبهها وهي برفقة لطفيّة.

- كيف حاله؟ سألت جوريّة.

- لا يحسّ بشيء، ليكن الله في عونه...

أغمض عينيّ، أوهم جوريّة أنّني أرتاح قليلاً، أعرف تماماً الآن كيف تمكّنت امرأة مثلي مدجّجة بلهفتها، وجمالها، وشاماتها من حبّ رجل حتى الأقاصي، في خلاء مبهم يسمونه بلادنا، تذكرتُ جلسات مكاشفتنا لبناء قصة لن تموت، بل قصة ستثمر كما أفعل الآن، قال لي في ذلك

الوقت: بعد أن تركتُ الضيعة، وتوجّهتُ إلى الشّام، تزوجت من صبيّة، (حبّيتها) منذ اثني عشر عاماً.

فضحكتُ: في حدا بيتزوج حبيبته يا أهبل!!

فردّ على كلامي بحرف هاء متدحرج: (هههههههه، يلعن شيطانك شو شقيّة!!).

- وأنا؟ سألتْهُ، بعد أن اندلعت الحرائق في نفسي إثر كلامه، بوصف تلك التي تزوّجها بالحبيبة.

- أنت حبيبة متوءمة مع الفقر والحرمان يا بتول، كنّا سنبدو مثل ثنائيّ مثير للسّخرية، والشّفقة.

كانت صباحات الجمعة خسارات فادحة لحفنات من النّور، لأنّني غير قادرة على التّواصل معه، فهو يوم الجمعة في بيته؛ معها ومع ابنهما سعد يشدو معهما يوماً عائلياً من دون سطوة الاتصالات الخارجية بكل أنواعها.

يراوغني الوقت، أتصالح مع اللا لقاء، أراه وفق رؤية جديدة كآلام الظهر التي ستزول عند أول رسالة منه في الصّباح التّالي.

أوّل درس نحته نحتاً تحت جلدي: اكتبي كي تكافحي الشّوق يا بتول، وأنا بدوري كنتُ أكافح الشّوق بطريقة أخرى؛ فقد خزّنت كلّ مقاطع الفيديو التي يلقي فيها شعره، ويناقش فيها أعماله أو أعمال غيره، ثمّ لجأت إليها لأسمعها.

سمعتُ إحدى قصائده عن دمشق للمرّة التّاسعة، وفي كلّ مرة تزداد هشاشة قلبي، وأسأل نفسي: متى ينفجر الصباح، فيأتي طفلي الخمسيني راكضاً إلى حجري؟!

أرسل إليّ القصيدة مكتوبة -كانت قصيدة عن دمشق- قبل أن يلقيها كما يفعل كلّ مرة، فرفضت إيقاعها المهادن الطريّ، الذي لا يتوافق مع دمشق، وحجارتها، وأجراسها، وبواباتها.

ثم سمعتُها بصوته، بيديه، بغمّازته، وبلوثة عشقٍ أصابت حواسي كلّها دفعة واحدة، فتأكدتُ أنّ هذا الرّجل قادر على إغواء مدينة كاملة كدمشق بحروفه، ورنّة صوته.

استيقظ سميح، هذه صحوته الأولى بعد عمليته الجراحية، أجهش في بكاء مؤلم، فدحته خسارته، هذا الشّقاء عظيمٌ، يبزّ كلّ الحروب التي خاضها منذ سبع سنوات، حضنته جوريّة، أما أنا فقد سبقتني قدماي إلى الحمام، تقيّأتُ حتى ندّاني العرق، كانت ركبتاي ترتجفان، ودوار ثقيل يلفّ رأسي.

عدتُ بلوعة.

رأيت سميحاً يحاول أن يحرّك أصابع قدمه التي كانت، ينظر بفجيعة إلى بعضه المتبقي بعد بتر السّاق إلى ما فوق الرّكبة، العطب أكبر من تحمّله، وقد خانه جسده أكثر مما كان يتوقّع.

هو النّقيب في الجيش، لم يزل حتى معاركه الأخيرة، يؤمن ويعُدُّ النّصر ضالته، والأوسمة غايته، أنّى وجدهما فهو الأحقّ بهما.

انتفض كامشاً فراشه بيديه.

سمع صوت أبي رضوان - أبيه - عندما قال له مراراً، وهو طالب على مقاعد الدّراسة في الكلية الحربيّة:

لقد نجونا من طوفان الماء مع نوح لنعمر الأرض يا سميح وليس لنحرقها، أينما كنتَ يا بني: اجنِ العسل يا سميح، ولا تكسر الخلية.

لكنّه كسر كلّ الخلايا، وخرّب كلّ ركنٍ طالته يداه ورتبته في خدمته كعسكريّ، تذكرتُ ما قرأته في أحد الكتب عن جنود كانوا مثالاً حيّاً للشرف الأكذوبة الذي تبتدعه الحكومات، ليُقبل الجنود على الموت ببسمة البُلهاء، وعلى قتل الأخوة في بعض الأحيان لأنهم أرادوا بعض حياة، بعض حقّ، فقابلتهم تلك الحكومات بأرض واسعة قابلة للموت والألم بأعلى مستوياتهما، والآن دهمه هذا الويل الذي يجب أن يعتاده، بل يجب ألا يبغضه، فقد تصبح قدمه الناقصة يوماً حبيبته.

يعلم أنّ نفسه تعطي من همّة ما كان يحدده لها من هدفٍ، لذلك أعطت بعضه لهذه البلاد المشتعلة، وتركته أعزل في وحشته الدّاخلية العاصفة، يرشقُ أسفله المُكفّن بالبياض بنظرةٍ مخذولة مهزومة.

قبل الضّوء (٤)

شعرتُ بقدم سميح النّاقصة، بلّلتني دموع أمّي بتول المنهمرة.

صوتها الذي يغصّ في الحكي:

- تصبّر يا سميح تصبّر، هذه محنة، وتزول.

ضوضاء مخيفة، رائحة دم غريبة ليست كالدّم الذي شممته عندما كنت أنغرس (جوات) أمي بتول، تفوح الرّائحة من كلّ غرف المستشفى، وتتسرّب إلى بطن أمي ونخاعي.

طالما اعتبرتُ سجني في بطن بتول خلوة، طالما كان قلبها الرائق جنتي التي تسير حيث أسير.

أخرجونا من غرف المرضى، أمي وأنا (جواتها) وجورية عمتي، ابتعدنا عن سميح بساقه الواحدة، وصمته الهاوية.

أحسستُ بشال أمي الأزرق ينزلق عن رقبتها فجأة، بدأتُ أهتزّ بعنف، وهي تركض في ممرات المستشفى حتى وصلنا إلى البهو الرئيسيّ.

كانت اعتدال - رفيقتها - مع أهلها وأخوتها فزعين باكين؛ فقد وصلت دفعة جديدة من الموتى إلى براد الجثث في المستشفى العام، البراد مكتظّ، والأهالي من أكثر من قرية، بملابس تكشف رداءة وضعهم، وبؤس معيشتهم ومصائرهم.

هذه المحافظة المسالمة في الجنوب بدأتْ عويلها منذ سنوات، كانت أمي تتمتم بذلك، ثمّ تقول: (الله يجيرنا من اللايذات.)

فانتابتني نوبة عنادٍ جنينيّ، أنا الذي لا أنتمي بعدُ إلى شجن الجغرافيا، وتكوّرتُ أكثر فأكثر في زاوية بطنها.

أحبّ هذا النمط من الحياة المليء بالأحداث، ولا أطيق وقتاً فضفاضاً يفرض عليّ رفاهية التفكير في ذاتي ووجودي وما ينتظرني في الخارج.

سمعتُ صوت رجل غريب - لا يشبه صوت فخر، الصوت الوحيد الذي أفقه فصاحة مطره وامتداده، مذ كنتُ صباحاً مأسوراً في أنبوب بلاستيكيّ بين نهدي أمي بتول - كان هذا الرجل يقول لشخص آخر: (لا فوق الأرض بكرامة ولا تحت الأرض بكرامة)....

في الحقيقة لم أكن أعي من اللغة إلا ما مرّ بي سماعه من أمي بتول، فلم أكن أعرف معاني مجمل الأقوال من حولي، وكنتُ أخزّن هذه المصطلحات مفرطاً في تفاؤلي، معتقداً أنّ (اللايذات والكرامة) مفردات تُكال بمكيال الفرح وليست نذير شؤم.

اتخذتُ زاوية قصيّة في خاصرة أمي، الرّائحة التي فاحت رائحة موت رهيب، وليست رائحة الدم المرافق لاندساس الحياة، كما رافقتني في مطلع عمري الجنينيّ، هذه الرائحة المحنة التي ستحتاج منّا أعماراً لتزول.

كانت اعتدال تحمل على يدها طفلة بثلاثة أعوام، سألتها بتول عن وضع محمود وهو زوج اعتدال، فردّ شابٌ يسند اعتدال وصغيرتها:

لم نعرف شيئاً بعد، حتى ندخل براد الجثث، لنتأكد إن كان بين الموتى.

عندما يبدأ غثيان أمي وانهيال دموعها، تنزل أكوام من العتمة عليّ، فلا أستطيع رؤية شيء، وأصير على شفا عماءٍ تام.

جلست أمي، وضمّت رأس اعتدال إلى صدرها، وهذه كانت تصرخ قريباً جداً مني:

- إن شاء الله ما يكون بيناتهم، دخيلك يا بتول.. يا ذلّي..

هذا الرّجاء الزائف؛ أن يكون الموت قد أخذ آخرين وليس من نحبّ..

دخلت أم محمود وأبو محمود، فُتحت أدراج البراد تباعاً، أخذت أمّ محمود تولول على الشباب الذين غدرت بهم الحياة، وذهبوا قرابين

حرب، ليس لهم فيها أيّ منفعة، فجاؤوا موتى من مكان هو وطنهم، وقد عُقروا بأيدي أخوتهم.

امتدّت يد «أبو محمود» إلى الدُّرج السّابع من أدراج الموت، كم كان سخياً هذا الموت! كم كانت الفاجعة مبذّرة بألمها!

بدأت أم محمود ترتجف، رُبط لسانها، وأبو محمود يقول من خلفها:

- (يا حمّال الشّدايد تحمل معنا..)

(حمّال الشدائد) هنا - في هذه البلاد - لا يقبل أن تغتسل بلادنا من جنابة الموت، يتعاطاه شهيّاً، ويصعق روحين منكسرتين برأس محمود الذي أطلّ أخيراً، بعد عشرات الرؤوس، معفراً بالتراب والدم.

خلع أبو محمود قوّته كاملة، ركع على الأرض، وخرّ بملء آهاته عندما رأى ولده غافياً، وكأنّه ارتاح أخيراً من عبء الحياة الثقيل:

- قطعت ظهري يا محمود.

لم يكن محمود يملك سوى جذعٍ، فقد نسفت القذيفة الجزء السّفلي من جسده كاملاً.

صرخت أم محمود، وسقطت فاقدةً الوعي، لم تسعفها كلّ الدّعوات إلى هذا الخالق، الذي تخلى عنها فجأة، وركل ولدها خارج الحياة.

سمعت اعتدال صراخ حماتها، ركضت مذعورةً بطفلتها، تبعد الرؤوس المزدحمة فوق محمود، وصلت كفا البنت الصّغيرة كعصفورين إلى جبهة محمود الشّمعية الشّاحبة، أخذتْ تحتجّ على غفوته بأصوات وصرخات مشوّشة:

- قوم بابا.. قوم.

محمود لا يردّ، سرقته سهول حوران منذ عشق الحياة، لم يجد مجازاً حقيقياً يليق بهذا العشق لهذه البلاد إلا الموت، لم ترهقه الخسائر التي

سببها له الفقر، ولا هزائم الحاجة التي كان خاسراً أبدياً أمامها، لكن أرداه الموت على أحد الحواجز المفتعلة.

حملوه، تراخت اعتدال بين يدي أمي، دخلت في عويلٍ مبرّحٍ.

كانت أمي بتول تلعن السياسات والحروب والسلاطين، بصوت خفيض، وتطري وحشيّة الزّمان الزّنديق، وعهره معاً، ساخرة، تسبّ ساخطةً؛ هنيئاً مريئاً أيها الموت العاهر، لا تزعق للشهداء، ولم تزغرد لأحدهم.

شدّت اعتدال إلى صدرها أكثر.

تدخل أمي في متاهات الهبل أمام تكبّر الموت وصلفه، تحاول ترويض جبروته بمزيد من الضمّ والحبّ.

خفتُ كثيراً، لقد رأيتُ ضوءاً في بطن اعتدال يشبهني، إنّها تحمل شرغوفاً مثلي، شرغوفاً سيكبر قبل أبيه. تململتُ في عتمة زاويتي القصيّة، من هنا ستبدأ رحلة تكيّفي مع الظلمة والصبر. لا أعرف إن كنتُ سأعبر هذه الحدود التي يسوّرني بها رحم بتول سالماً، ليتني أنسى كل ما يحصل الآن قبل أن أعبر، صرتُ أنظر إلى جنبيّ، وأرجو براعم أطرافي أن تنشقّ، وتخرج، وتطول بسرعة، كي أحضن ذلك الضّوء في بطن اعتدال كما تحضن أمّي بتول اعتدال والطّفلة الصّغيرة، التي بدأت تبكي ملصقةً رأسها في بطن أمي إلى جواري، قريبةً جداً بوجعها، شعرتُ أن جزءاً مني قد مات مثل ساق عمي سميح.

تمنّيتُ لو كنت أملك دموعاً كالتي في عيني أمي بتول، وعيني الطفلة، واعتدال، لأبكي مثلهنّ. لأوّل مرة في تاريخ وجودي يبرعم عجزي قبل عيني وأطرافي، وأرى الحياة من قفاها المميت وليس من وجهها الصّبوح. في الحقيقة؛ لم أحسب حساباً لعجزٍ سيكبر معي، وتخاذل كتهمة ستلبسني ما حييت..

قبل الضّوء (٥)

قلّما كانت أمي بتول تذهب إلى قريتها في الرّيف الشّرقيّ، اختارت نهاية الأسبوع لتخبر والدتها عن وجودي في بطنها، وليفرح ممدوح لأنّه سيصبح جدّي.

ركبتْ سيارتنا، وغذّت السّير باتجاه تلك البقاع الخالية إلا من صخور بركانيّة سوداء، تمتد متلاحقةً، متلاحمةً مع بعضها بعضاً بصورةٍ تبعث على الرّهبة والجمال معاً، وبينهما تنبسط بخجل سهول يقتات منها المزارعون بعض حياة؛ قمحاً وشعيراً وعدساً.

هنا تمرّ الحياة في القرى الشّرقيّة، وكأنّه ما من حرب في البلاد، فقط عمليات التهريب التي لا تريد الدّولة أن تزعج نفسها بها، والتي يتحدّث جدّي عنها بقهرٍ وغضبٍ، ويتحدث عن حالة الانفلات والفوضى هذه إذ لم تكن في يوم من الأيام كما هي الآن.

تناهى إلينا فور دخولنا سور الدّار الحجريّة صوتٌ خشنٌ عتيقٌ، محفوف بالحماس:

(شدّيت حُرّة من الهجن تحلى لي، حرّة وأصيلة تسابق الغزلان).

كان لقائي الأوّل مع جدّي ممدوح، وهو(يهيجن) للدّبس كما المعارك، انشغل في تلقيم النّار مزيداً من الحطب تحت قدر كبير -يتسع لقافلة الحلاوة في العنب، وفي صوته الثخين- يغلي ما تبقى من عنبٍ ليصنع دبساً ملكيّاً تشرينيّاً، لا يجيده إلا هو:

- حياك الله أيتها الغالية، أهلاً بطلّتك.

- كيف حالك بابا، عالبركة.

- حلّت البركة بوجودك يا رزقتي.

هو فخورٌ ببتول، بشهادتها الجامعيّة العليا التي نالتها بتقدير ممتاز، وبأخلاقها، وبشجاعتها، وبانطلاقها؛ هي مثله ابنة الوعر والعنب، ابنة هذا الجبل الأشم.

زكمت رائحة الدّبس قلبي، هفت نفسي تريد تذوّقه، صرتُ أضرب ذلك الجزء الذي انفصل عنّي، والتصق بجدار بتول كي تشعر برغبتي، لم أتعلّم بعد كيف أحافظ على كبريائي عندما أجوع.

صارت الرّائحة لذّة مكتملة تحيط بي، وشعرتُ أن شكلي صار يأخذ شكل المكان الجديد وبركته وحلاوته ونقاء قاطنيه.

خرجت امرأة بعصبةٍ عريضةٍ بيضاء على رأسها، تثبّت بها غطاء رأسٍ سميك، كانت بطيئةً في حركتها، بدينةً، تخبّ على الأرض، عيناها على الرغم مما يحيطهما من تجاعيد، تشعّان بطهرٍ غريبٍ، ترفع لثاماً أبيض، يغطّي فمها، اقتربت من بتول شمّتها من رقبتها، وأنا بدوري شممتُ هذه المرأة، فشعرتُ أنّها احتكرت لهفتي، وعرفتُ أنّ لهفتي العذبة تليق بامرأةٍ مثلها، فهي جدّتي أمّ أكرم التي دلّلت الكون عندما أنجبت أمي بتول. فيما بعد صرتُ أعشق رائحتها التي تشبه رائحة الزّيتون، فهي رائحة كاتمة، وعميقة لا تفصح إلّا عن نقاء وبركة.

وجدتْ أمّ أكرم بتول جميلة لكنّها شاحبة، الإرهاق يبدو عليها واضحاً، دهمتها بعين الأمّ الخبيرة، والمرأة الفاحصة للمرأة:

- ناقرة عينك يمّي يا بتول؟

خجلتْ بتول، مثل كلّ البنات في هذا الجبل القاسي، أطرقت في حضرة والديها، تشعر بالخجل الشديد، تشعر بالذّنب، بالمعصية أمامهما، وبأنّها في العراء، لمجرّد أنّها أتقنت لغة الجسد، وكشفت سبيل الحبل.

- أنا حبلى يا أمي.

عادت أمّ أكرم لتغمرها، ودموعها تسيل على خدّيها:

- ألف مبارك يا قلبي، يا رب تعطينا الخلفة الصالحة والخير والسلامة، بارك يا ممدوح لبتول، ستفرح بأول حفيد من حبيبة قلبك بتول.

في هذه البلاد كلّ كائن يتقن التّعبير عن الفرح بدموعه، ولا يجد منطقةً عازلةً ليمارس فيها الفرح كضحكة عفويّة من دون مراقبة، كما يفعل الأجانب بطلاقة - وقد أخبرتني أمي عنهم فيما بعد - أمّا هنا، في بلادي، فلا نجد إلا ثقافة حزن أصيل، وجميل، ومتجبّر، يمارسها جدّي أباً عن جدّ.

يمسح ممدوح دمعةً لاحت في طرف عينه بزاوية حرامه الأحمر، يغرف قليلاً من رغوة الدّبس، يضعها في صحنٍ بلاستيكيّ، يناولها لبتول:

- تذوقي يا حبيبتي لا تحرمي نفسك من شيء، الله يطعمك من غلّة الموت.

كنتُ قد بدأتُ أصرخ لائباً بلا صوت، أريد هذه الرّغوة الحلوة، رغوة الدّبس الشقراء، وقد بدأت رائحته تنخرني، وكنتُ لم أزل أنبوباً وضيعاً مع انتفاخٍ خفيف في أعلاي.

تكوّن مخّي وأنا ألحس رغوة الدّبس في تلك القرية الجبلية في الشّرق، إلى جوار جدّي ممدوح وجدّتي أمّ أكرم، زدتُ رسوخاً في رحم بتول، وازدادت رائحة (وعر الصفا) عناداً، وولوجاً في دمي.

لم أكن أعرف ماذا يقصد جدّي ممدوح بقوله: (الله يطعمك من غلّة الموت)، كنتُ أظنّ أنّ الموت يملأ فراغات الكون المظلمة كما يملأ هذا السّائل - الدّافئ الرحيم - الفراغ الكبير من حولي في بطن بتول، ثم أدركتُ أنّ للموت مواسم، وهو يحصد الأرواح بملء قسوته حين يحين

وقت القطاف، وحين يخصب الكون بعددٍ فائض من أبناء جِلدتي، وأنّه ليس بحالة سائلة أبداً، بل هو صلبٌ وقاسٍ، وماكرٌ كحكّام البلاد.

هذه العبارة المفخخة بالحياة- الله يطعمك من غلة الموت- اكتشفتُ فيما بعد أنّ أبناء طائفتي هم وحدهم من يقولونها، لأننا نتقمّص، ونولد عند بعضنا بعضاً، جيلاً بعد جيل، وفي كلّ جيل نكون أكثر هشاشة وأكثر قابلية للرحيل بعيداً عن اللّجاة.

رنّ هاتف أمي المحمول في دار جدّي العتيقة هذه، وكنتُ ربما قد غفوت، تنبّهتُ إلى رنينه المتواصل..

جاءت فتاة صغيرة لتقول لأمي:

- جوالك يا عمتي، هذا عمي رضوان.

- أهلاً حبيبي.

قالتها أمي بحبور، ولم تخف من لفظة حبيبي أمام البيت العامر بالبشر، خرجتْ إلى فناء الدّار، دار حديث مسالم وهادئ بينها وبين المتصل رضوان؛ الذي شهق عندما أخبرته أمي أنّها تحملني في بطنها، وما إن شهق رضوان حتى بزغ شيء ما في داخلي، نظرتُ إلى (جوّاتي)، كأنّ شيئاً ما قد بدأ ينبض، بحجم حبّة عدس، يدق مع شهقة هذا المدعوّ رضوان.

عادت أمي إلى الغرفة الغربيّة، كانت مزيونة من بدو المنطقة تُبصّر لجدّتي ولزوجة خالي، وجدتي أم أكرم تحبها وتبني مودة وعلاقة طيبة معها تشتري منها السمن البلديّ والصوف والزبدة ومزيونة تطيل المكوث في بيت جدي عندما تزور جدتي.

أما جدّي فيحبهم كلهم أي بدو الضيعة، بلا استثناء ولا يقول إلا (نحنا أهل والرّبّ واحد).

يجلس جدي مع زوج مزيونة واسمه حمد في أرض الدار الحجرية، تحت عريشة العنب، وحمد هذا يجرّ على آلة في يده تصدر زعيقاً حزيناً يصل إلينا متناغماً مع صوته وكلمات لا أعي منها شيئاً:

(حقيقة الشّوق وخويّة خيالي

نصبتها روحي وصدري بلدها...)

ثم يعود زعيق تلك الآلة اليائسة حاداً، بائساً.

نظرتْ مزيونة في عيني أمي قبل فنجانها، كانت تفوح منها رائحة الغنم، وليست رائحة الزيّتون كجدّتي - إنّي حديث العهد بهذه الرّوائح كلّها، كما أنني حديث العهد مع قلبي الذي بدأ ينبتُ بجرأة، ليرضي غرور تكوّني، وليواعد الله كي ينفخ فيه الرّوح عما قريب.

ابتسمت مزيونة:

-بتول لا تصدقني خيتي أم أكرم، المرّة الماضية قلت لها، إنني تعلمت قراءة الفنجان في صحراء الأردن، ويشهد عليّ الله أنّ الذي علّمني ليس بشرياً مثلنا، وبقيت أصرخ، وأسير في ديار أهلي سنتين، كنت قد أضعتُ عقلي بعد ما مسّني ذاك الجنّي، والحمد لله شفيت، بعد عام أو أكثر على يد امرأة تقيّة، لكنّني بقيت حافظة لما علّمني إياه ذلك الجنيّ في قراءة الفنجان والكفّ...

تغيب بتول في ضحكةٍ ساحرة، كما تفعل كلّ مرة عندما تطلق مزيونة جهات خَرِفِها الأربع، تضحك من دون توقّف، بتول أمي تحبّ مزيونة وتحمل لها عطراً وأثواباً ملونة فضفاضة من المدينة وتقول لها أن تتزيّن دائماً، وتراها بدوية باهرة الجمال والرّوح.

- أرأيت يا أم أكرم أرأيت؟

- شوفي الفنجان يا عمّي، وبلا قصصك هلق.

عادتْ مزيونة للنظر في عيني أمي، شعرتُ أنّها تحلّلني، وتسرق مني عذريتي الجنينيّة.

- أنت يا بتول، قلبك يتلبّسه جنّي، شعره أبيض، ترينه كلّ الوقت، وتحملين روحه.

انتفضتْ أمّي بعصبيّة:

- وبعد؟ هذا قريني تحت الأرض؟!

ضحكت مزيونة التي كانت تراني داخل أمي، رغم عدم علمها بخبر الحمل، خفتُ منها، مزيونة تعرفني، وتعرف صاحب الشّعر الأبيض، أوّل رجلٍ بارك وجودي، إنّها تراني.. تراني...

قامت أمي لتغادر قبل (ضبّة العين) ودعتها جدّتي أمّ أكرم.

عندما أصبحتُ معها آمنين في السّيارة، سمعتها تحدّث (فخر):

... أيّها الخمسينيّ كدتَ تفضحني.

وضعتْ أحد الأقراص التي أهداها إياها فخر في مسجّلة السّيارة، وبدأت غالية بنعلي تسلطن رائعة السهروردي عبر مساحات تشبه كمشات الأمان، الذي شعرت به عندما ابتعدت أمي عن مزيونة:

بكلّ صبحٍ وكلّ إشراق
أبكي عليكم بدمع مشتاق
قد لسعتْ حيّةُ الهوى كبدي
فلا طبيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذي شُغفتُ به
فإنّه رقيتي وترياقي..

ترفع أمي صوتها عالياً: إلا الحبيب الذي شغفتُ به

فإنّه رقيتي وترياقي...

كتبتْ رسالة على عجل وأرسلتها إلى فخر - أوّل من آمن بي من الرّجال- كانت الرّسالة مطلع أغنية غالية بنعلي.

صرتُ أعرف أصوات الأجهزة الإلكترونيّة؛ رنّ الصّوت، إشعار وصول رسالة، استيقظ قلبي -حبّة العدس - في هذا الخلاء اللّطيف.

قرأت أمي: مقامك يا بتول فاتن، فتّان، فتون، وكلّ السّادة والملوك رعاة على حافّة سواقيك.

مدّتْ أمي يدها لتحتضنني، ابتسم قلبي الوليد، واهتزّ طولي الذي لم يزد وفق مقاييس أمي على (نصف سنتيمتر)، لا أخجل من شبهي بالشّرغوف، أنا ابن بتول أمي، وهذا يكفيني.

إشارات العتمة (٥)

أخبرني فخر أنه لم يعد أمامه من سبيل إلى الخروج من شرنقة الأسرة الخانقة، إلا بحرق نسيجها وبالتحليق بعيداً عن حبسها.

استلمتُ رسالته فجراً عندما أتاحت لي الشبكة اللعينة ذلك، وكان على ما يبدو قد كتبها طوال فترة انقطاع الإنترنت وغيابي عنه:

الصباح الذي لا تحضرين فيه يا بتول عبر شاشتي المضيئة، لم يكن صباحاً في عُرفي.

أجلس إلى مكتبي الذي أرتاده في هذه الصحراء منذ خمسة عشر عاماً؛ أنسّق لوحات الإعلانات، وأجهز الأغلفة للمنتجات المتنوعة، أتفقّد أحوال فرحي، فأرى الأمل مبحلقاً، والقلق شامتاً، فاز بفريسة طالما تمكّنت من الهرب والاختباء.

ليتك إلى جواري يا بتول، تبتسمين كما أبتسم لشعري الأشيب وأنا أطالع كتاباً للمفكّر مصطفى الشكعة وأضحك يا بتول، نعم أضحك، لأنني نموذج مثاليّ للدرزي من انطوائي على نفسي ونأيي بما أعرف من عقيدتي، وصبري، ثم إنني مواطن صالح، صالح وبكثرة، أفاخر أمام أبناء جاليتي عندما يُطرد أحدنا من العمل بأننا حاربنا الظلم وهزمنا التتار وحاربنا الصليبين وثرنا على العثمانيين والفرنسيين، فلن تذلنا الحاجة في هذه الصحراء ولن تقعدنا الهمة.

ثم تعالي يا بنت، يا شقية؛ أليس من الصّعب جداً على رجل جادّ مثلي أن يعشق امرأة مجنونة مثلك يا بتول، لكنّني- وأرجو أن تغفري بوحي- اعتبرتُ ما جرى ثورة خريف العمر، ظننتُ أنّها لوثة الجراح

الغائرة، وأنّني سأشفى منها إذا أزهقتُ ذاتي في هذه العودة إلى الحكاية حتى النهاية، فلكي يبقى الإنسان إنساناً في نظري عليه أن يثور ثلاث مرات في كلّ مرحلة من مراحل حياته.

(أنا حبلى وبدي البيبي)، هكذا صرّحتِ أيتها المجنونة، في رسالتكِ تلك، فصرتُ كمن يقف على رأس صخرة شاهقة، لا أستطيع الصّراخ، ولا أستطيع الرّجوع إلى الخلف، لا أملك إلا هذا السّقوط من علوّ، كان سقوطاً شهياً باتجاه جنوننا الذي يختمر جنيناً في بطنكِ الآن.

هذه الرّسالة رغم كلّ ما أحدثته من اضطرابٍ وقلقٍ في نفسي، شعرتُ معها - ولأول مرة في حياتي - أنّ فرحي يكتمل ليصير بدراً مختلفاً.

بتول يا رفيقة القلب؛ لقد تعلّمتُ من أبي - الذي ما زلتُ أراه قدّيساً - أنّ الحزن منفى، وأنّ الحبّ وطن، تعلّمتُ منه أنّ أكون شجاعاً عند هبوب الوجع والفرح والأحاجي الوجوديّة، أبي الذي خدم في صحراء تدمر حارساً أميناً لسجنها المعروف بعظمة طغيانه ثلاثين عاماً تطبّع خلالها بطباع الصّحراء والقضبان الكاوية وجبروت الشّمس والظّلم وقسوة الجلادين.

كلّ سجين سياسيّ يدخل أمام عينيه يمثّل طعنة طاغية في القلب، يصبح عصياً على الذّاكرة أن تنساه، ربما لذلك بقي في نظري قدّيساً، لأنه عاش كل هذه العذابات وخزّنها تحت جلد ذاكرتها التي لم ترحمه وباتت تجلده مثل أولئك الجلادين.

أضحك من نفسي الحالمة، أستفحش ما أتذكره عن أبي، وسيرته مع سجن الظلام، وأسأل: كيف سأخفي كلّ هذا الفرح والقلق، المُبرعَمين معاً يا بتول؟!

مرّة قال لي أبي بعد أن أنهى خدمته في تدمر، وتوجّه للإقامة في طرطوس؛ لينفض تاريخه تماماً ويسقطه عن كاهل روحه، في بيت

متهالك، قديم، في ضيعة في أطراف المحافظة، رممناه لنبدأ فيه قيامة جديدة لروحه ولأرواحنا جميعاً- على شاطئ (عمريت)؛ حيث تستقبل مياه البحر مجاري الصرف الصحي للمحافظة بأكملها:

((قاتل يا فخر لتبقى طائرة الورق طليقة)). كنتُ ألبس يومها بنطالاً مرقعاً برقعة طليقة البشاعة، وأركض (بخفافة) صينية مدروزة بخيط سميك إثر تفتّقها من أكثر من جهة. كانت رائحة المجاري كالفقر تقتفي خطواتي أينما حلّت، ولا تغيب عني في كل ساحات لعبي، لكنّ أبي كان يفتل شاربيه مثل لويس السّادس عشر، ولا يكترث لهذه الخيانات كلّها على الشّاطئ، وفي الوطن، كان يُعلّمني كيف أبقي طائرة الورق طليقة.

كيف كان أبي يعيش بروحٍ ناقصةٍ متعاميةٍ هكذا؟

هذه المرّة طائرتي أنتِ يا بتول، وفرحنا في متناول يدي، لكن كيف سأحلّق على ارتفاع منخفض لأظلّ قريباً منكِ، كيف سأحميكِ بأصابع من شمع بعيدة عنكِ اتساع صحراء، كيف ستواجهين عالمكِ الجديد وبذرتي تسرح في دمكِ؟!

إنني أخشى أن أخسر كلّ ما أملك دفعةً واحدة، فأعترف في ساعات صدقي القصوى بكلّ شيء، بقصتنا وبحملك، وفي ذات الوقت، نعم لا تستغربي، إنني على استعداد تامّ لأتلقّى رصاصة في صدري مقابل أن أكون إلى جانبكِ في مخاضكِ الأوّل بطفلنا، مقابل أن نعلن حبنا وأن نعيش طليقين من هذه الخطيئة، بل أن نجعلها حقيقة مطمئنة واسماً رسمياً في دفتر العائلة.

هذه طريقتي في الحبّ؛ أحضنَ آخر صورة لكِ كممسوسٍ.

كفاية شعوري بالسّكينة - صدقيني - أن أعلم أنّكِ لمّا تزالي ترفّين بجناحي فراشة، وتنبضين بقلب طير، وتخطين كغزال يدرك أبّهة حضوره.

كنتُ ذاهباً لإعداد قهوتي، عدتُ راكضاً عندما سمعتُ صوت الرّنين الصّادر عن بريدي الإلكتروني، ارتعشتُ بكامل جسدي عندما فتحتُ الرّسالة؛ هذه ليست صورة لكيس جنينيّ، طولهُ أقلّ من سنتيمتر واحد، وباتساع يقلّ عن سنتيمتر واحد، هذه شمس لظهيرة حاضرة حضور الجوع في بلادنا، هذا ابننا يا بتول.

مددتُ يدي إلى الشّاشة، أعادت الصّورة تشكيلي من جديد، صرت أتمثّلكِ يا امرأة؛ عشقاً، شهوة، شعراً، وسيرة حياة، كأنّكِ وليّة كوني، ونعمتي وروحي، كأنّكِ الرّيح تنقلين الغيوم من هذه الصحراء الشرسة في جبروتها، إلى جنوبي القصي لتوزّعي عطاياكِ على عمري السّاجد لكِ، فأظل دائراً في فلكك بدأب وتوحد.

أعرف الآن أنّ فراقكِ يا بتول هو الوحيد من ضمن الأشياء الخمسة التي تذيب البدن، والتي حفظتها عن أفلاطون؛ أما قصر ذات اليدّ وتجرّع المغايظ وردّ النّصح، فكلها أمور بسيطة يمكن للمرء تجاوزها، انتبهتُ لها وللآخر أفلاطون السّاذج، فضحكتُ كذوي الجهل بالعقلاء، (فراقها فقط يذيب البدن والروح، يا أفلاطون).

يوم أمس رتّبتُ لوحاتي، لأسلمها للمدير، شعرت أنها باهتة لأنكِ لم تقولي لي رأيك فيها، ولففتُ منشوراتي الإعلانيّة، دسستها تحت إبطي كأسطوانة اعتدتُ تأبّطها.

لن أخفي عنكِ؛ لقد دخلتُ إلى مديري ليس لأسلّمه عملي المنتهي وحسب، بل لأختار إجازة تتناسب مع موعد ولادتكِ.

اشتريتُ لكِ «كتاب المتوارين»، وواريتهُ في حقيبتي، إنه كتاب بحثتُ لكِ عنه طويلاً، حتى حصلتُ عليه بثمن غالٍ -«ولا يهمك مش خسارة فيكِ» - الكتاب لعبد الغني الأزديّ؛ يتحدّث عن أولئك الذين اختفوا خوفاً من الحجّاج، ومثله الكثير من الكتب التي

أخبرتني أنك تحبين اقتناءها، تتحدث عن السّجون، والمعتقلات، والتّعذيب، وبطش الأنظمة...

أعرفكِ تفتّشين عن النكد تحت أظافرك، ولو كان الأمر لي لتمنيت أن ينقرض هذا النوع من الأدب، أدب السجون والمعتقلات.

أمضي الوقت وأنا أقرأ كثيراً، وأصمت كثيراً، يحجّ أصحابي إليّ بهمومهم ومشاكلهم؛ وشعورهم المرير بالغربة والحنين، أنصتُ بمحبة، ولا أقبل من أي عامل آسيوي أن يغلي لي قهوتي الصباحية، أغليها بنفسي، وأذهب بها إلى مكتبي.

أفتح الشّاشة العريضة على صورة ياسمينة أهديتني إياها أنت يا بتول، أضع قربها فنجان القهوة.

صرتِ رفيقة غربة وسفر؛ أعرف أنّ إكرامكِ يكون بمقاسمتكِ الفرح، والذّود عن حلمنا.

أكتبُ في زاوية الصورة العليا وبخطّ منمق جميل: «بشّر المتيم باللقاء ولو بعد حين». إنني أتنفس الحياة بنقاء رفقة وجودك.

دخل صديقي وليد، ثقيل الدم، سأغلق جهازي المحمول أمام فضوله المفرط، سأكتب إليكِ فيما بعد..

قبل الضوء (٦)

كانت عينا بتول أمي متورمتين، بكتْ كثيراً في بيت اعتدال، ودّعتْها، وتركتها أمانةً كاملةً بيد حزن بهيّ واسع المدى، ثم عادتْ لتقف بي أمام غرفة عمّي سميح الذي لم يكن يعلم بوجودي في جدارها بعد.

سميح الذي بقي على قيد الحياة، ولو بجسدٍ ناقص، وكنا ننتظره ليفتح عينيه، ويعي فاجعته، بعد أن غاب عن الوعي في يقظته الأولى، بعد ساعات سيتأقلم مع دفء نجاته، وسيتمكن من ضمّ رجله المتبقية.

صار الوقت عصراً، رفضت أمّي العودة إلى البيت، كان وجع اعتدال عالقاً بشال أمّي الأزرق، ويغرس نصله في كلّ ملامحها.

سمعتُ قلبها يحدّث (فخر): (ليتك هنا يا فخر، أحتاج أن أثمل على دفوف صباحاتك، ليتك ترافقني من شروق الشّمس إلى غروب اليأس. فخرٌ حيّ، يجب أن يظلّ حيّاً، ولو لم يكن بين ذراعيّ).

هكذا كانت بتول أمي دائماً وكأنها منفصلة عن واقعها، مكتفية بعالمٍ فيه أنا وهي وفخر فقط، رغم امتداد الألم من حولنا تطلّ كل صباحٍ على شرفات رسائلها تعلق قلبها وإحدى صوري الجنينية هناك وكلمة (بحبك) ثمّ تمضي إلى شؤونها، تتنهد في معظم الطرقات التي تمر بي فيها، أسمعها تقول لي: هذي البلد بلدك، سبحانه الوطن سينسيك أنك ابن... تصمتْ، تسيل شهقتها، أعلم أنها تبكي وأنها لا تريدني أن أسمع أنني ابن حرام، أشفق عليها، لا أعرف كيف أخبرها أنني أحاول أن أسامحها وأن هذه البلد ساحة هزائم لكنني أحبها مثلما هي وفخر يحبانها.

مدّتْ يدها مسحتْ كحل عينها اليسرى، وعند زاوية فمها كانت تحاول ترتيب ابتسامة تليق بجنين مثلي، انغرس في زمن الفاجعة، وبمصابٍ كسميح ينزّ ألماً من كلّ مسامات جسده.

ألحّت عمّتي جوريّة التي علمت بوجودي على مغادرتها:

- أنت حبلى، لا يصح أن تظلي في المستشفى، وجهك أصفر، يا رب الخلاص بخير وسلامة، غداً نخرج من المستشفى - إن شاء الله - وأنا أتصل بك ليهدأ بالك، ويطمئن قلبك، ثم تأتي لزيارتنا في البيت، البيت نظيف ليس فيه أمراض وجراثيم مثل المستشفى، اذهبي الآن، كُلي ونامي.

عانقت أمي عمّتي جوريّة، وهذه الأخيرة بدورها بكتْ على كتف أمي بمرارة، فسمعتُ صوتها المتهدج:

- اللي راح راح يا بتول، ساقه مش أغلى من شباب البلد، يا حسرتي كلّهم مثل الورد، يا ويل قلبي على قلوب أمهاتهم...

غدرت بنا سماء تشرين أثناء خروجنا بمطرٍ سخيّ، صارت أمي تركض فلا أستطيع التمييز بينها و السماء، نعم أمي تشبه السّماء في تشرين؛ تحبس أنفاسها ثم تفور في دفقٍ وذكاء عاطفيين، فتكسب قلبي إلى صفّها دائماً.

ما كدنا ندخل عتبة شقّتنا حتّى رنّ هاتفها المحمول، كانت إحدى زميلاتها في العمل، تذكرها بموعد الذّهاب للمباركة لزميلة أخرى لهنّ، قد تزوجت منذ وقت قريب. اعتذرت أمي عن الموعد، رغم أنها كانت تقف قبالة خزانتها المفتوحة، تراقب كعب كندرتها العالي ككعب القهر - هذا الوصف وجدته في دفترها لاحقاً - وتذكر كيف كانت تتربص بها عيون زميلاتها من حولها في كلّ مشاويرهنّ معاً، كنّ ناقصات أمانٍ وثقة، كاملات خوف وجمود، وهي طالما كشفت إبطها واحة ياسمين

أمامهنّ، وأمامي، كانت تشعر بغيرتهنّ منها، هي التي تظهر دوماً كأنّها في مواسم البدايات.

لبثتُ مُغمض العينين فترة طويلة، ربما كنت نائماً.

عندما صحوتُ كانت أمي تستحمّ بماء دافئ، وأنا أتمدد بهدوء (جوّاتها)، لا أعرف كيف يتساقط الكلام، ويرتطم بي كما ترتطم حبّات الماء بجسد أمي فأسمع صداها.

كثيراً ما أحببتُ نقر أصابعها على جهازها المحمول، وصوت شفتيها، وهي تتهجّى الكلمات التي تكتبها وتلك التي يرسلها فخر:

- وأخرج إليكَ؛ منسوب شوقي يطاول الرّحيق والسّنابل، ممهورة القلب، تبّ كون ليس فيه فخر تبّ.

- حي الله بالغالية، اشتقت لك.

أرسل فخر صورة مشعّة لغلاف روايته الجديدة: (مجانين شاطئ الفجيرة).

شهقت أمي فرحاً:

- ألف مبارك يا قلب.

الغريب كنت أشعر بالخطوط المكتوبة، أشعر بلغة أمي وفخر، ولا أستطيع فهم غيرهما. كانت هذه هشاشة فيّ أحبّها، فما حاجتي إلى لغات تعضّني من دماغي، وتقودني إلى فهم ما لا يطيق قلبي - حبّة العدس -

أمي بتول علّمتني دروس الحبّ الحمقاء، عبر رسائل الهاتف وعبر مقاطع الصوت القادمة من فخر وعبر أغانيهما المشتركة، مموهةً حقيقة خيانتها، وهي مكتظة بحبلها وشوقها وتشتتها وعبثها الطفوليّ.

فخر يقول: (مشتاق، دخيلك مشتاق).

كنتُ أرى يد أمي تجوس صدرها، تمشي بي لتجلس على السّجادة النّاعمة، أنفر من حركاتها اللاحقة، أسمع صوت فخر: (اعزفي، إيه اعزفي، هذا الخصر تشيللو، خليه يطيّر الآه)...

أشعر بها مستلقية تتلوى، وتتأوه، ترفع غيم ثوبها.. أحاول أن أتشاغل عن مدّهما الفاحش، بجزري البريء، فأغمض عيناً، وأفتح أخرى... الشّبق لعنة الإنسان.

هناك شغف كالمطر، تحاول أن تهديه له، لفخر غير الحاضر في المكان، تشهق فتسافر شهقتي معها واسعة كالفرح، أشعر بيدها تمتدّ وتمتدّ، تضمّ فخذيها اعتراك شهوة، وأضم وجودي، أرغب أن أنزل من جوفها، وأن يحلّ هذا اللّهيب بعيداً عني.

تعرّقتْ، ازدادتْ حرارتي إثر تقلصاتها المتتابعة، احمرّتْ هي لهفة ووجلاً عليّ، وربّما خجلاً مني، رتّبتْ خصلات شعرها، نظرتْ في عيني فخر المتسعتين كوطن عبر شاشتها المضيئة.

- (بتجنّني).

تبدو أمي كأبهى ملاكٍ عندما تنتهي من قضم شوقها، وتصير شهيّة كحلم، وأنا أتظاهر أنّني لم أرَ شيئاً، لكنّ رعشاتها تنخس الرّوح بميسم لذّة، يختلّ لها رحمها، الذي هو وطني غير المجتزأ؛ فيسقط قلبي في نوبة فرح غير معهود صرتُ أعيشه معها عندما تعزف على جسدها كما يقول لها فخر، وعندما تركض بي تحت المطر وتصيح بأعلى صوتها: (ولك شم شم ريحة أرضك بعد المطر).

إشارات العتمة (٦)

رجع التيار الكهربائيّ في فترة متأخرة من اللّيل، كثرتْ وطالتْ فترات انقطاعه في الفترة الأخيرة، بعد تفجيرات مستهدفة ومنظمة طالتْ محطات التوليد، ازدادت المفخخات وعمليات القصف العشوائية.

غفوتُ على أريكتي، استيقظتُ على قرع عنيف على الباب في السّابعة صباحاً، كان أكرم، أخي الذي أحبّه كثيراً، وأشفق عليه في شتاته، هناك إطارٌ من الرّفض يجعلني في حالة عدم راحة دائمة منه.

بدأ خصامنا الأوّل عندما وشم شعار الحزب القومي على زنده، انتفضتُ لرؤية الوشم المتورّم الأحمر، اللاهب:

- مجنون أنت، شابّ مثلك يرسم الحرف الأوّل من اسم حبيبته على زنده، وليس شعاراً سياسياً.

- لا تنظري إلى زندي.

ردّ زاجراً، وقد لاح لؤمٌ خفيف في عينيه. كيف صار بمثل هذه العدوانية؟ كان يؤجل خدمة العلم بذريعة دراسته الجامعيّة، في كلّية الآداب، قسم الفلسفة، لكنّه رسب لعامين متتاليين، وفُصِل من الجامعة.

جلس ينتظر مرسوماً رئاسيّاً ليعاود التحاقه بكلّيته من جديد، وليحصّل فرصة أخرى، لكنّ الحرب كانت أسرع منا جميعاً، داهمت البلاد، فعطّلت الحياة والفرح، والتعليم، زاد الطين بلّة حضور أحد رجال الشّرطة من مخفر البلدة، سلّم أبي ورقةً تطالبه بالتحاق ابنه أكرم في صفوف الجيش، لأداء الخدمة العسكرية، فوقّع عليها ممدوح ككائن أسطوريّ الهبل والمثاليّة، مُبتسماً:

- كلّنا للوطن.

أبي الذي ما زال يقرأ مولد إنسان لمكسيم غوركي، وكيف سقينا الفولاذ لأسترويفسكي، والذي لم يستطع حتى الآن أن يحيا كما يريد هو، بل كما تريد له الظروف، أبي الذي كان يردّ على الكثير من الأشياء التي ينتظرها منذ انبلاج حياته ولم تتحقق بعد مبتسماً لأمي بـ«عييش يا كديش ليطلع الحشيش»

أبي الذي ما ملّ من ممارس الخسارات علناً وقد بدأ يبيع قطعاً واسعةً من أرضنا المزروعة كي نشتري ما يلزمنا من طعام ومؤونة وكان يدسّ بعض الليرات في جيب خلف الراعي البدوي ليشتري الدواء لزوجته من دون علم أمي، وإذا ضبطته يفعل ذلك يعضّ لي على شفته كي أكتم السرّ ويحدثني همساً: الله يساعد كل محتاج، كلنا بشر وأخوة يا بيي.

وقّع أبي على الورقة تلك، وبموجب توقيعه أصبح أكرم مطلوباً لخدمة العلم، ومتخلفاً إن لم يلتحق بقطعته العسكريّة ليؤدي واجبه.

رفض أكرم الالتحاق بعد أن جنّ جنون قوافل الشّهداء، وصارت تأتي بالمئات من محافظات الشّمال.

بلدتنا والبلدات المجاورة قدمت العشرات من الشّباب، ولم تزل الحرب فاغرة فمها، ولم يزل المئات من الشبان في خدمة العلم، منذ خمس سنوات أو ست، فقرّر أكرم أنّ كلّنا للوطن إلا هو، هو للحياة، ليس للوطن شأن به...

ألقى تحيّة الصّباح عليّ، ودخل:

- أعلم أنّك ستخرجين لرؤية سميح - الحمد لله على سلامته - أحضرت لكِ (بيدون مازوت).

- مازوت داعش؟ لا أريده.

- بلا وطنيّات، خذيه، بطنك مليان ومقبلين على الشّتا يا بنت..

إنّني أرفض طريقة تعاطيه مع الحياة الجديدة التي تفرضها الحرب، أتفهم أنّه لا يريد الالتحاق في صفوف الجيش، لأنّه لا يريد أن يموت في لعبة سمجة، هو يريد أن يعيش بكرامة، وهذا ما نقدّسه جميعاً، بعد هذا الحصد الجماعيّ والعبثيّ للأرواح، لكنّي لا أفهم كيف تحوّل من طالب جامعيّ مُتفتّح، نشيط، جميل الاطلاع إلى مُهرّب مازوت. ولا أفهم هذه الفرضية التي جعلته يُسلّم أن يكون في مرمى هذا الشذوذ القدري.

دهمتُه وأنا في الضيعة، وهو يقرأ كتاباً عن أنطوان سعادة:

- لو كان على قيد الحياة ورآكَ وأنت تبيع مازوت مهرّب للدواعش!

- روحي من هون..

صفق الباب ذاك الوقت في وجهي، والآن صفقتُ أنا الباب خلفه، بعد أن ترك (بيدون) المازوت في عتبة الشّقة.

قبل الضوء (٧)

استيقظتُ على صراخ أمي، لا أعرف أين نحن، لكنّ أمي كانت تخاطب رجلاً:

- يا أبا فهد!

كيف تغسل جدران الصفوف واللّوحات معلقة، تعب المعلمات، لوحات النّجوم، لوحات الشّرف للمتفوقين، رسوم العلوم التّوضيحيّة، قواعد اللغة العربية، لوحات أعياد الميلاد، وفصول السّنة؟!

ظل أبو فهد مطرقاً يتمايل على إيقاع أغنية هابطة وكأنه لا يسمع أمي.

كنتُ أتمايل على إيقاع الأغنية مثل أبي فهد، عندما أخرج من حبسي الراهن سأسمعها بصوت مرتفع أكثر، جميلة أغاني الكون خارج رحم بتول.

نظر أبو فهد في صلب عيني أمي، خفتُ..

أبو فهد جاء إلى المدينة من معضمية الشام، عندما دخلها الجيش الحرّ، وخرج هو مع من خرج من أهلها إلى المحافظات الأخرى، ثم تمّ ترتيب وضعه كموظّفٍ في قطاع التربية، وحُدّد له مركز عملٍ جديد في مدرسة أمي، سمعتُ كلامه هذا في يوم دوامٍ سابقٍ، وكان قد أخبر أمي ومجموعة من زميلاتها عن ضياع ولده، وهو شابّ في الثلاثين من عمره، فلم يعد يعرف عنه شيئاً.

تعامله معظم المعلمات بتوجّسٍ، فهو ليس من أبناء مدينتنا، باستثناء أمّي بتول، فقد كانت تسأل بمحبة عن أحواله، وفيما لو علم

أيّة أخبار عن ولده المفقود، فأخبرها أنّه علم مؤخراً بسجنه في أحد فروع الأمنية.

نظر إلى أمّي بدمعٍ طائفٍ، وهو يلملم الصور التي ذابت بفعل المياه، وسقطت عن حيطان المدرسة مشوهةً، تالفةً؛ وكأنّه سعيدٌ بصنيعه ذلك.

- كان ينبغي أن أذوّب اللوحات كلّها لأن القهر يذوب قلبي، لا أستطيع أن أفرّغ غضبي إلا بهذا الخراب الهزيل، في الحروب تموت لوحات الأطفال أيضاً مثلهم بلا ذنب، ليس أكثر عهراً من هذه الفسيفساء المرضيّة التي تجمع رسومات طفل إلى جوار صور كثيرة أخرى...على الحائط نفسه...

(ها فهمتِ يا آنسة بتول؟)

دُهِشتْ أمي، وازدادت انكماشاً، تلفتت حولها لتتأكد أن أحداً لم يرها مع «أبو فهد»، وهو يبرر جريمته الإتلافية للّوحات والصور.

كانت تهمس (جوّاتها): يااه يا «أبو فهد»، ليس فيض غباء صنيعكَ، بل فيض دهاء.

مشتْ بي مسرعة، متلعثمةً، وخائفة لتخرج من هذه الحجرة، بدأتُ أدق على جدارها، كي تعود بي، فأستمتع بتلك الأغنية، وقد بدأ صوتها يتلاشى بعيداً.. بعيداً...

لأول مرة لا أحرك جسدي كاملاً لأخاطب أمي، ابتسمتُ ليدي، صار لي أطراف، سأدق بها، سأمزق بها كلّ الصّور التي لا تعجبني، شعرتُ بيدي في جوقة تخريب «أبو فهد» للوحات كامل الصّفوف في إحدى مدارس المدينة الابتدائية، وقد وجّه عليها خرطوم المياه فبلّلها حتى الذّوبان ليمحو معها صور الكثيرين غيرها.

لم تكن يدي مؤهلةً بعد لتفعل، أو لتذيب صور القتلة، لكن انبثاقها في هذا اليوم بالذات لم يكن مصادفة، كان رسالة سماويّة، رسالة فتحت لي نوافذي لأطلّ على قوّتي ورفضي، شعرت أمي بلكزتي الخفيفة لا شكّ، لكنها تركتني لهبلي كي أعيش مكيدة أن لي القوة، وأن ذراعي تفتحت وأنها ستكون ذراعاً قادرة على تذويب المحن.

إشارات العتمة (٧)

لم أذهب إلى مدرستي تفادياً لحضور الاحتفال في هذا الصّباح؛ إذ كانت المدارس تخصّص ساعة دراسيّة للاحتفال بالذكريات المجيدة، وروحي كانت في حالة عزاء شامل.

اتصلتُ بديمة، واتفقنا على اللقاء عند سميح للاطمئنان عليه.

أنا وديمة صديقتان لدودتان، أرمي بثقل أسراري في حضن ديمة وأمضي.

ديمة الوحيدة التي علمت بانشطاري بين رجلين، لكنّها لم تعلم بعد بسرّ الحمل الخطير.

كانت الحارة التي أجتازها في أطراف المدينة من الجنوب بيوتاً متلاحقة غريبة، مهجنّة ببعض الأبنية الحديثة، أكياس الرّمل والحواجز والدّواليب تمزّق كلّ مظاهر الطمأنينة والأمان، وكأنّ هذه البلاد مهيّأة منذ الأزل لمعترك قتال. جماعة رجال الكرامة- وهي فصيل مسلّح محليّ- تجوب الطرقات مع جماعة الدّفاع الوطني، والجيش، تكاد لا تميّز العين بين هذه الفئات المختلفة التي تنبثق دفعة واحدة باستثناء رجال الكرامة؛ إذ ولأنهم كانوا من فصيل محليّ دينيّ يميّزهم لباسهم.

أدركُ أن جلّ الأماني للفقراء في هذه المدينة أن يبقوا على قيد الحياة، فهذه البلاد لا تعير اهتماماً لحياتنا، لسؤالنا، ولحاجتنا، بل تدفعنا دفعاً كلّ يوم لننتقي ما نشتهي نحن من أنواع الموت المتوفّرة بسخاء.

فوضى عامة في الأرواح والشوارع، تصبح الحياة لعبة خطيرة جداً في زمن الحرب.

قطعت ديمة شرودي عندما فتحت الباب فجأة:

- ادخلي

تعانقنا طويلاً.

- تعالي معي لنذهب إلى سميح، نسيت أن أخبرك أيضاً؛ أنا حبلى...

- شو قلتي؟!

- أنا حبلى.

تعلّقت برقبتي، شمّت رائحة الحياة فيَّ،

- ألف مبروك يا قمر، يعني خلص بطلنا عشّاق وحطّينا عقلنا براسنا؟ غمزتْ ديمة، ابتسمتُ لهذه الفيلسوفة التي تتحدث بإيجاز، وعفوية، والتي علّمتني بطبعها الملائكي ألا أحكم فلا يُحكم عليّ في محاولة جلية لإطالة عمر التّأمل عند الإنسان والابتعاد سَفر سنوات ضوئية عن الظلم والأحكام الجائرة:

- عقلنا نعم... أجبتها وأنا أكذب بلذة ومن دون أدنى تردد.

...

فتحت جوريّة لنا الباب، تخونها ملامح وجهها، فلا تستطيع إخفاء ارتباكها وتلعثمها:

- تفضلوا، سميح في غرفته، عندي الآنسة لطفيّة، وسكتت.

تغمز ديمة لي، هذه الغمزة؛ لغة ديمة المُرمّزة الشّقية:

- لطفيّة، وعلى العتمة، وضوء أحمر؟!! ستعرفين يا بتول أنّ كلّ سكوت لغز، وقولي: قالت ديمة، لا، لا، مش أنا أمين الريحاني اللي قالها.

ألكزها في كتفها، وأحثّها على الدّخول.

باغتنا «سميح» الذي أخفى شيئاً تحت وسادته، تلبّد قلبه، أنهض جسده بذراعيه فصار جذعه قائماً، طافت من عينه دمعةٌ كافرة، بدا عجزه عارياً أمام عيني ديمة النّاعسة:

- كيف حالك ديمة؟

(كيف حالك؟)!!، طالما ردّت ديمة على هذا السّؤال بصمت ودموع، منذ أن هاجر معتصم البلاد.

علا صوت الأغاني من مُكبّرٍ للصوت إلى جوار سميح.

«من يوم لاح نقّض الجراح... بأهداب عينه يا خلق ذبّاح...

بأهداب عينه يا خلق طاعنّي».

طالما أيضاً تآمرت هذه الخلفيات الموسيقيّة على قلبه، وباحت عنه.

أشارت ديمة للمسجلة مستفهمة، ابتسم سميح:

- شعبيّ، للشاعر جاد الله سلّام، الرّجل كان فارساً مقداماً في الثورة السورية الكبرى إلى جوار الباشا، لكنه العشق يا بنات، يرمي كلّ الرجال.

نظر سميح إليّ بعينين متسائلتين، وقد بدت ديمة على وشك البكاء فقلتُ له:

- معتصم - حبيب قلبها - لم يصل ألمانيا بعد.

- بسيطة، ظننتُها تبكي على فقدي لساقي، والله ساق وراحت لباريها- وضحك بصخب وباستخفاف - أما معتصم فيستأهل دموعك يا ديمة، لكن وكّلي الله، سيصل ويطمئن قلبكِ عليه....

كان معتصم طبيب أسنان، يفتح عيادة متواضعة في بلدته، ولديه مرضى طيبون، يعاينهم، ويصلح أسنانهم بالتقسيط، وفي أحايين كثيرة ينتظر حتى بيع موسم العنب والتفاح ليتقاضى أجره.

أصابته حمّى الهجرة، كما أخبرتني ديمة، وازداد إلحاحاً في طلبها عندما طُلب إلى الخدمة العسكريّة الاحتياطية، ذعرتْ أم معتصم، فكل المطلوبين في الخدمة الاحتياطية من أبناء الجنوب كان يُسارع إلى

زجهم في الجبهات الساخنة في الشمال ولا يلبثون إلا بضعة أشهر ثم يرجعون مكفّنين بعلم البلاد.

بعد ذعر أم معتصم أسرعت وباعت (مباريمها) الذّهبية، وباع والده قطعة أرض في القناطر الشّرقية ثمناً لهربه المحفوف بالموت من بلاد الموت.

توجّه إلى لبنان ومنها إلى تركيا وأقام هناك أربعين يوماً، يحاول مع ثلاثة من رفاقه- هم أطفال دون سن الثامنة عشر- أن يعبر (بالبلم)الرّحيم، عندما يهدأ الموج، لكنّ خفر السواحل التركي كان في كلّ مرة يقبض على الشبان الجامعيين والأطفال والنساء، ويزجّهم في (هنغار) يتسع لكل جنسيات الفقر، والعذاب، والقهر على امتداد ساحة العالم، من أفغان وباكستانيين وعراقيين وسوريين، ثم يعودون في صبيحة اليوم التالي إلى الفندق المطلّ على بحر غريب، وتغيم روحه الجسورة؛ لا يطيق العودة إلى الخلف، ويخاف ذاك المجهول الرّاحل إليه.

في المحاولة الأخيرة، كان قاب قوسين من مياه اليونان، لكنّ (البلم) الرّحيم توقف فجأة، فأنزلهم ذلك النّصاب التركي على صخرة وسط البحر، وتركهم لشمسه الحارقة المالحة، وأمواجه المجنونة، ليوم وليلة، حتى وجدتهم (الجاندرما) التركية، وأعادتهم إلى الشاطئ.

عندئذ قرر معتصم الالتحاق بفريق جديد، مكوّن من تسعة أشخاص بينهم امرأة وطفلتان، وشاب عاجز برفقة أخيه.

كانت نيران البواسير تلهب مؤخرته، وتشعل سعيرها ممتدة في كلّ جسده، وكلّما سقط نظره على العاجز كان يشعر برغبة جامحة في الصّراخ، والتقيؤ والبكاء.

تفاصيل مريرة ترويها ديمة بخجل وألم ومرارة، تبكي وتحذف رسائله عن الواتس آب كي لا يعاودها التقرح عندما تقرؤها من جديد..

تخيلي يا بتول تخيلي:

يتحرك مسرعاً بحرج ليصل إلى أقرب شجرة يلوذ في جذعها، ينزع لباسه الدّاخلي الذي عجز منذ عشرة أيام عن إبقائه جافّاً من دماء بواسيره.

يغفو قليلاً، يجتاحه الرّعب ومعاون (البلم) العراقي يوقظهم فجراً للتحرك.

كانت إحدى الصغيرتين تتشبث بآخر رمق للعقل في رأس أمها، التي نترتها مع أختها، وألبستهما سترتي نجاة برتقاليتي الموت.

ركب الجميع وهمّوا في رجاء أخير. أضواء (الجاندرما) التركية وحرس الشواطئ بعيدون بعض الشيء. يبحث معتصم عن ريقه ليبتلعه فلا يجده.

كانت مياه البحر مجنونة، وهذا الانتقال من البحر التركي إلى البحر اليوناني هو مرحلة تصرع الرّوح، تبدأ بمعركة قاتلة للهرب، والنزول إلى الماء، والإبحار بصورة غير مشروعة.

قرابة نصف ساعة والموج يزداد ارتفاعاً، بدأ موتور (البلم) يتوقّف بصورة مفاجئة، متقطّعة، والصّغيرة المرافقة لهم لم تتوقف عن النشيج، طوال الوقت، مشعرةً الجميع بزحف موت غريب في مكان غريب.

هذه الجزر اليونانية قبلة للمهاجرين السوريين والسريين؛ هي مقبرة مائية للأرواح الهاربة من نيران الحرب والجوع والفقر واللا كرامة.

- جزيرة رودس قريبة جداً.

ارتفع صوت المعاون العراقي... وهذا آخر كلامٍ سمعه معتصم كما ذكر في رسالته.

لكنّ الموت كان أقرب وأسرع من كلّ شيء، صفق بهم الموج العالي، تشبّث كلٌّ بما وقع تحت يده، أما الصّغيرة المنتحبة فتعلّقت بمعتصم، الذي حرص على لفّ يديها الاثنتين على رقبته، وأبقى رأسها محاذياً

لرأسه، ليحول دون ابتلاعها لمزيد من الماء، وبدأ يشقّ الموج باتجاه الصخور الأقرب.

كانت مياه البحر باردة جداً، ومالحة جداً، شعر بمرارة ملحها في رئتيه.

هو يعلم أنّ الموت غرقاً سيستغرق ست دقائق فقط في المياه المالحة، وليس عمراً كاملاً، كان ينازع ليرفع الصغيرة إلى ما فوق كتفيه، أما أمها وأختها والعاجز وأخوه، وكامل الفريق، فلم يبقَ أحد منهم على مدّ نظر معتصم وعينيه الغائمتين المحروقتين. صعد أوّل صخرة استطاع لمسها بيديه، ودخل الآخرون الذين كانوا أحياء في غيبوبة جميلة، تخفّف من هلع الموت الذي يأتي ليسترد أمانة الله، وهم في غيبوبة مريحة.

من قال إنّ الموت غرقاً مؤلم؟

لقد هيّأ الله الرّحيم استجابةً غريزية للذين يموتون غرقاً عموماً، وللسوريين خصوصاً...

بدأ يقفز، والصغيرة على ظهره، من صخرة إلى أخرى - مرتطماً ببرودتها وقسوتها - باتجاه شاطئ بدا واضحاً، انتشر فيه رجال الشرطة اليونانيون، بدؤوا بالاقتراب من الناجين على طول الشاطئ، ومن أولئك الغرقى الذين بصقهم البحر. كانت الصغيرة تتنفّس، لكنّها زرقاء اللون، وكان معتصم شبحاً هارباً من الموت، سجّل في ذاكرته؛ موت أول..

على شاطئ رودس نجا معتصم والصغيرة من بين تسعة مهاجرين، أخذتهم نزوة الموت إلى نهايات حاسمة. لكنّ ديمة انقطعت عن التّواصل معه منذ صباح الأمس، أرسل إليها مع آخر رسالة صورة هويّته الشّخصية، وجواز سفره، وأخبرها أنّه لن يفتك به موت لأنه يحبها...

تنظر إلى الصورتين على هاتفها المحمول، تريني إياهما لي، ثم لسميح، ثم تبكي بتناغم موصول.

قبل الضوء (٨)

صوت أمي بتول كهديل الحمام، أيقظني نور مباغت سقط من عينيها مباشرة إليّ، كانت الشمس في تشرين وقحة، لا أعرف في أي زمن نحن.

أمي ترتق ضعفها، تهرع إلى أناها، أشعر بها، وهي تزيّن جناحيها في عين مرآتها، ترتّب بعض خصلات من شعرها الكستنائي، لتبايع ذلك الغريب عن قلبها رضوان، تستعير كلّ ملامح العشق، حتى تلقي عليه سلام المحبين، تنصب له شركاً رحيماً.

يقضّ مضجعها هذا الضيق الذي تشعر به، والذي يلازمني مثلها.

انتصبتْ أمي في قاعة الاستقبال في مطار دمشق الدولي، برفقة جدي ممدوح، وجوريّة الأخت الوحيدة لرضوان، وكنتُ أنا معهم بمصادفة عشقية، ماكرة، سخيّة.

ضمّها رضوان، شعرت بتوتر أمي، يشمّها، كدتُ أرتجف، أحسست أنّ رضوان يسحب الهواء من حولنا، وضع يده الثقيلة عليّ، شعرتُ أنّني مثقل بذنب وجودي في بطن بتول.

- عيب نحن في المطار... قالت أمي.

بحثتُ عن كفّي لأغطي فعل وجودي، الذي يُبنى على الغدر برضوان حتى في حضوره.

هذا اللقاء الأول البليد بيننا، وددتُ لو أنطفئ، لا أريد أن أتشجّر من بتول كشجرة النبق.

كيف سأخبره وأنا الأنبوب الضعيف - جوّات أمي بتول - أنّ الله وفّرني ثمرة عشق باذخة، وأمي لم تترك مكاناً شاغراً إلا وملأته بعشقها، حتى رحمها، وأنّها كانت مترفّعة عن مراقصة شهوتها مع فخر، فأنا ابن الدّفع القسري عبر حقن صناعيّ، ولست ابن الشهوة.

آمنتْ بحق قلبها عليها، بطفل من صلب فخر.

شعرت بالدوار... أدور.. أدور... داخل هذا الرّحم الرّهيب.

- كيف وليّ العهد؟

- الحمد لله، وأنت؛ كيف أحوالك، كيف كانت الرّحلة؟!

أنا الأنبوب ولي عهد رضوان، أنا الملاذ الذي سيضلّله، والحياة التي لا تتورّع عن وسيلة في الدّفاع عن نفسها واستمرارها، أنحشر في مصيري أكثر، مصيري الذي لا ذنب لي فيه حتى الآن.

طالما ربّيتُ في أعماقي أنني لست ابن الحرام الوحيد على سطح هذا الكوكب، كي أحفظ ماء وجهي عندما أنظر إليّ في جدران رحم أمي، ورغم ذلك كلّما تنفس رضوان بالقرب مني، ودللني، كان يصحو احتقاري لذاتي باعتدادٍ استثنائيّ، يكرّس فقه الخيبة تحت زغبي، وأفقد كل صلاحيتي للحلم بغد مدهش، غدٍ أتجاهل فيه أصل الحكاية وأصلي معاً.

إشارات العتمة (٨)

في طرف بعيد صحراويّ، كنتُ أرمح كغزالة مفترية، في خيال فخر، لا ذنب لي في دفق نرجسي، كنتُ جديرة بفخر أستحقه بجدارة عشقٍ؛ فخر ذلك الذي زاغت عيناه عني ذات حياة، ولا أستحق رضوان هذا الذي أتأبط ذراعه الآن ذاهبين إلى سميح بساقه الواحدة.

أثناء وجود رضوان كنتُ مثل أوروبا -التي هاجر إليها معتصم والتي لا نعلم إن كان قد وصلها أم لا حتى الآن- جميلة، لكنّني باردة، ساهمة لا أصلح للحبّ ولا للمعاشرة، أختلس الفترة التي يبوح فيها سميح عن رجله الراحلة لرضوان، أقرّب صورة طازجة لفخر على سطح هاتفي المحمول،

قرّبتُ الصورة، كبّرتها، الغمازة ذاتها تسرق روحي، وعيناه الذابلتان كعاشق مكسور، لا أعرف كيف تتداخل ملامح الصور القريبة، هو القرب سيف بحدّ خبيث.

لا أعرف كيف أحببتُ هذا الوقت مع فخر، في المنتصف، بين حلم مشرّع وغد رحيم، وفرح يُزفّ بألف مطلعٍ كلّ صباح.

ما كان عليّ سوى أن أطير كما ينبغي لامرأة حقيقية مثلي، تثمل حتى لوقع النَّفس.

كنتُ معتادة أن أفرغ أمامه حصيلة مطالعتي ونشاطي اليومي، وصندوق موسيقاي، لكنّ الوقت الآن بحضور رضوان لم يعد يتسع.

يكتب لي:

(أشعر بكِ، نامي بحضني يا قلّوب)، في محاولةٍ يائسة منه لتدليل ذلك القلب الذي لا يُصغّر في حضرته، والذي تحول مذ عشقته إلى وديعة.

أعتذر من رضوان وسميح، أتجه إلى غرفة داخلية، أتمدد، أقترف صوابي الأجمل، مستلقية من أسفل جبلي الأشم المخاتل، اللائذ في حربه الباردة، إلى صحرائه الصفراء المارقة، أضمّ نفسي، أضع يدي المتعبة تحت رأسي، أحاول أن أصدق بعد أن يصبح هاتفي المحمول في عتمة تامة أنّني لم أكن في حضنه، بل في غرفة داخلية، في دار أهل رضوان، على مرمى حائط من سميح الذّبيح، وعلى مرمى صحراء من فخر الحبيب الذي يتوجه إلى بيته الآن.

قبل الضوء (٩)

استيقظتُ عندما صفقت انتصار باب السيارة، وجلستْ إلى جوار أمي، كنّا في طريقنا إلى دائرة الصّحة المدرسيّة.

هنا في هذه البلاد يتعرّفون علينا نحن - أولاد الموظفين - ويتابعوننا ونحن في بطون أمهاتنا، منذ مطلع انغراسنا.

صوت انتصار- وهي رفيقة وزميلة لأمي- زاعق كالمزمار، حادّ ينخرني كمِسلّة، تقول لأمي إنّها لم تعد تطيق التغافل والصبر، تعرف أنّ التّغافل حكمة، لكنّها لم تعد تريده، تخبرها أنها تعبتْ من حياتها.

كانت تحكي عن زوجها عبدو، أخرجوه منذ ثلاثة أسابيع من أحد الفروع الأمنية.

عبدو محامٍ من طراز رفيع، يؤمن أن الطمع بالمجد، والحرية، لا بالغنائم، لذلك كان أوّل من حمل أغصان الزّيتون ومشى في المظاهرات التي انطلقت من دوّار الشعلة باتجاه السوق جنوباً، وكان من أوائل من قام بتصوير الحراك الشعبي الذي لم يكن تمّ تشويهه بعد في الساحات وإرساله إلى فضائيات عربية وعالمية.

كانت المرة الثانية التي يُسجن فيها، وانتصار تؤمن أنّهم لن يغفروا له زلّة بعد ذلك، وأنّه أصبح رجلاً مرفوعة جنايته، فلا تُقبل به شفاعة، ولا يُجار من أحد.

بكتْ وهي تخبر أمي أنّه كلّ يوم يقف بذقنه النابتة الشائبة أمام المرآة، وتحت عينيه ألوان داكنة، صار يبول على نفسه من دون أن يشعر، ويصرخ في وجه المرآة:

(والإقدام قتّالُ... والإقدام قتال)

- الصبر، الصبر سيعود إلى رشده؛ هكذا تقول أمي، تؤمن أنّ عبدو أخذته سكرة تلك التي يسمونها الثورة، وغواية الحرية، لكنّه سيعود.

تململتُ في بطن أمي، لا أعرف كيف تطمئن أمي لتلك التظاهرات التي يعود فيها الوجود إلى الخلف، تململتُ أكثر لتفهم أنني أرفض استسلامها، وأرفض أن ترى البلاد مجرد مكان ملغوم بالوجع، تحركتُ أكثر لتعرف أنني أحبّ الرفض عند تحلّ بنا الظلمات مثل عبدو، ولا أطيق الصمت المحايد، لكنّها لم تكترث بي.

كان ضوء الإيكو المنبعث من جهاز الطبيب في دائرة الصحة المدرسية بشعاً، جعلني أنفر من دوائر الحكومة، وترصدها المقيت لي، حتى وأنا في بطن أمي. أخذ الطبيب يسلّط الضوء بين فخذيّ، يقرر قتلي بتحديد كُنهي.

اختفى الضوء فجأة، تنفّستُ الصعداء، لن أجعل أحداً ينازلني وفقاً لجنسي، ويعطيني امتيازات تبعاً لذكورتي أو أنوثتي، هذه سلطة لا تعرف أماناً.

تفرّس الطبيب بنظارته اللئيمة في بطن أمي، مدّ يده إلى أسفل بطنها، وعينه تومض بشهوة نكراء - لا أعرف لِمَ يغتصبون الإناث في هذه البلاد على مدار اليوم بطرق طاعنة في البشاعة.

رفع نظارته وهو يجسّ نبضها، وصلت عيناه إلى مشارف ثدييها، كانا بضّين، يلسعان شهوته.

لم أعد أستطيع الصمت، وصل إلى رزقي وقوتي، من بديهيات الحياة أن أثور دفاعاً عن منابع عيشي، فركلتُ وركلتُ.

باخت الوقاحة في عينيه إزاء عيني أمي اللتين كانتا في عوالم أخرى.

- لم نتمكن من قياس حجم الجنين، وتحديد عمر الحمل سيدة بتول، سأسجّل لك زيارة حمل أولى وعندما تعودين في الزيارة الثانية نملأ البيانات المطلوبة إن ساعدتنا الكهرباء طبعاً، وبدأ يضحك ضحكة قبيحة الرنين.

كنتُ أضرب على بطن أمي كي تغادر المكان، جنسي ذكر، هكذا ضرباتي تشي بي، والإيغال في الرّفس من صفات الشّرغوف النمرود مثلي.

إشارات العتمة (٩)

رأيتُ «سميح» على الرّدهة الشّرقية مواجهاً للشمس، في انتظار الموت يغني للموت، يجلس على كرسيّ خشبيّ، ينتهي امتداد فخذه على بعد أربعين سنتيمتراً من حوضه، لعله نوع من الإرهاب الروحي أن يواجه فقده بكلّ هذه المرارة، وفي عين الشمس، لا أعرف إلى أيّ نوع من الرجال ينتمي سميح هذا.

كنتُ قد شجعتُه على كتابة ما مرّ به من تجارب في إطار حياته العسكرية كنوع من البوح وتزجية للوقت، وكشرط إضافي للبقاء، ضحك وقال لي: لقد بدأتُ فعلاً أكتبُ يا بتول، أحاول أن أختزل كلّ خرابي ببضعة أسطر، تخيلي من فرط إيماني بذاتي، وبمغامراتي قتلتُ ساقي.

يمدّها أمامي، يرفع ثوبه، يظهر جلده المزموم، أشيح بوجهي، يضحك وملء عينيه الدموع، أركض لأفرغ معدتي وكأن نقص سميح يتحرش بحياتي أنا، أعود لأرى على الطاولة التي كانت أمامه دفتراً متوسط الحجم، عنونَ الصفحة الأولى:

جريمتي رقم ١ في القرى الشمالية الشرقية:

كنتُ ملازماً أوّلاً في المطار العسكريّ المجاور للتلال، وتحت إمرتي المئات من الأفراد القادمين من محافظات الشمال، والمحافظات الوسطى.

محسن، علي، زكريا، عبد الواحد؛ أربعة رجال لا يتعدى عمر الواحد منهم اثنين وعشرين عاماً، زكريا أكثرهم نحولاً وصفرة، شعر لحيته قد خُطّ على خجلٍ ليناسب مواعيد الحبّ أكثر من خوض المعارك.

كان مما لا يمكن تخيّله أن يكسر أحدٌ حصاري المنيع، ويهرب خارج أسوار الثكنة، في فترة التوتر والاستنفار والهجمات المتلاحقة للدواعش من الأطراف الشرقية، ونحن نعيش على كفّ عفريت.

ربما العبث الذي تفرضه الحروب، وانهيار الإيمان بالدولة والوطن والدين، كلّها دفعة واحدة، تولد هرباً جنونيّاً كهرب هؤلاء.

في الاجتماع الصباحيّ تبيّن تغيّب الأربعة عن الحضور، فتّشنا المهاجع، الحمامات، المطابخ، وساحات التدريب، لم يكن لهم أيّ أثر.

كنت في أعلى درجات غيظي، فهربهم استخفاف بي على وجه التحديد، سيّرتُ مجموعة من ثمانية عناصر باتجاه التلال المفتوحة من الجهة الغربية، ومثلها من الجهة الشمالية الغربية، كانت هذه المنطقة مليئة بالمغارات، التي يمكن أن يلجؤوا إليها. أدركت أن كيمياء هذه الصخور ستكون عسيرة على هؤلاء الشبان القادمين من شمال البلاد ووسطها، القادمين من سهول القطن والقمح.

كنّا نبعد عن ضيعة صغيرة مأهولة بعدد بسيط من السكان لا يتعدى أربعة آلاف، والأهالي هنا يتناغمون بشكل خفيّ مع العسكريين القادمين من المحافظات البعيدة، ويحركون آلة التهريب غير المحدودة في كلّ الاتجاهات ومختلف أنواع السلع، يجمعهم وبشكل سرّيّ عُرف التهريب فلا يفرق بينهم وطن أو انتماء أو ذوق، شأنهم شأن كل القرى الحدودية في معظم أنحاء البلاد.

وفي طريقنا وجدنا امرأة ستينيّة، تبدو في بيتها المتطرف وكأنّها تعيش في أعلى درجات وحدتها، سألتها إن كانت قد رأت أحداً مرّ من هنا، فقالت: ما رأيت أحداً.

كان في كلماتها خبث. أدارت وجهها، ورفعت منديل رأسها لتغطي فمها وأنفها بطرف المنديل من الأسفل، وقبل أن تدخل من باب واطئ لاحت نظرة منها مباشرة باتجاه الغرب.

تابعنا تقدّمنا، وهناك حيث فسحات قليلة من التراب المكشوف، صارت تظهر آثار واضحة للأحذية العسكرية.

بدتِ المغارة الأولى كنفق مفتوح من الجهتين، يملؤها الضوء والسكون، ولا أثر لأحد فيها.

عند المغارة الثانية اقتربنا بحذرٍ، فسمعنا همهمتهم؛ أصوات مكتومة، تغالب ارتفاع نبراتها.

هددتهم بالخروج والأيدي مرفوعة إلى أعلى، وبيني وبين ذاتي اشتعلت نيران خوفٍ من أن تكون المغارة ملاذاً لمهربي السلاح، أو لعناصر من تنظيم داعش المتاخم للمنطقة والذين يأتون للتزوّد بالمؤن.

أمرت العناصر أن يتوزعوا في كلّ الجهات، وقفتُ محتمياً بصخرة مقابلة تماماً للمغارة مع عنصرين، أما بقية العناصر فقد تمركزوا خلف صخور متنوعة الأحجام وبجهات متعددة.

وكان قد لاح أوّل الخارجين، بحلقتُ جيداً بالقامة الهزيلة فإذا بي أرى زكريا مُغبرّاً، كامد الملامح، انتظرتُ قليلاً لأعرف إن كان سيتبعه أحد، ثم انتفضتُ أريد الانتقام لخوفي ولكسر حصاري، فصاح زكريا كمعتوه:

- لا تطلق سيدي، أنا المجند زكريا، ليس معي سلاح،

تبعه علي، ومحسن، ثم عبد الواحد، وقفوا إلى جوار بعضهم بعضاً.

- عناصر استعدوا لإطلاق النّار.

في خفّة تعتري الروح إذ شعرت بدنو ختامها، نطّ عبد الواحد:

- (لا يا سيدي، لا تقتلنا، سندلّك على السلاح الذي أخذناه كلّه، لا تقوص كرمال الله..).

أردت رصاصتي الأولى عبد الواحد، الذي تجرأ على طلب الرحمة وهو خائن.

القتل، القتل يا سميح:

- عسكر، نار..

ألزمتُ بقية الجنود بإطلاق النار على الثلاثة المتبقين من زملائهم الهاربين، كان هؤلاء قد سرقوا ثلاث بندقيات إضافة إلى أسلحتهم ليبيعوها للمهربين، ويؤمّنوا تكلفة فرارهم من الخدمة العسكرية ويعودوا إلى محافظتهم في الشمال.

جررنا الجثث مسافة نصف كيلو متر تقريباً، مررنا إلى جوار العجوز مع غياب الشّمس، فدخلت مولولة:

- (يا ميمتي، الله يساعد قلوب أهلهم..)

أردتُ أن أقول لها: إنهم خونة وأكثر شراسة وخطراً من عدوّ بيّنٍ، وإنّ الحياة العسكرية تفرض علينا ألواناً من الموت الحادّ، الذي لا معنى له سوى تكريس السّطوة..

مددنا الجثث على الطريق العام، اتصلت بالمقدم عايد:

- سيدي، وجدناهم الكلاب، كانوا بوحدة من المغارات.

- ماذا فعلت؟

- أعدمناهم سيدي، حسب أوامرك.

- وما عرفتم أين ذهبوا بالسلاح.

- بلى سيدي، باعوا القنّاصات لبعض البدو الذين يعملون بالتهريب، والذخائر لشابّ من الضيعة اسمه مهران.

- سأرسل لك سيارة عسكرية لتنقلهم، اتصل بأهاليهم، وزفّ لهم خبر استشهادهم في مهمّة في القرى الشرقية.

... دخل سميح بعد أن أنهى جلسة علاجه الفيزيائي، وعلى عجلة حملتُ هاتفي الجوال وأعدتُ دفتره إلى مكانه وتظاهرتُ بعدم اكتراثي لأوراقه.

كانت بطني قد تكوّرت قليلاً، وكنتُ أتمادى في عصياني للألم كلّما رأيتُ «سميح»، أحاول أن أهرب من مرأى ساقه المبتورة.

إشارات العتمة (١٠)

فخر... سعادتي الفطريّة تمشي على قدمين، يشرّع للصباح بسمته، عبر محادثتنا المكتوبة والمرئية.

يداعب رأس سعد الصغير براحة كفّه، هذا الطفل شارد النظرات، يتلفّتُ طوال الوقت، طالما رأيته في مقاطع الفيديو التي أرسلها لي وفي صور عديدة.

يضرب بيديه الهواء، ويتحرك بطريقة فوضوية، ينظر فخر إليّ عبر شاشتينا، يشعر بألم يعصرني أنا نيابةً عنه، يحزن قلبي، أراه يحتضنه، سعد يساوي الحضور جميعاً عندما يجلس على ركبتيه.

كان فخر يهين المرض بسخاء حنانه، يقف متحدياً القدر، كاسراً شوكته، يُلبس «سعد» الحذاء بعد محاولات متكررة، يحمل حقيبته، ويحمله على كتفيه، يجلسه إلى جواره في السيارة، متجهاً به إلى مركز التنمية الفكرية لذوي الاحتياجات الخاصة، يلتقط صورة (سيلفي) لهما، ليرسلها لاحقاً لي.

يؤمن أنّ «سعد» بركة البيت، ويعلم أنّ الاقتناع مهم في خيارات الحريّة، وليس الحبّ أو الأبناء كما أرسلهم لنا الله.

يعبث سعد بأزرار المسجلة في السيارة، لا ينهره فخر:

(بابا، بي بي أربة دللونة...)

يطلب سعد أغنيته المفضلة، بهذه البساطة العصيّة.

وفخر يلبّي فرحاً نداء هذا الضوء الدّاخلي، بابتسامة رجل خمسيني على مشارف خريف أصيل، وطمأنينة تحكم كوناً هُما فيه، يقبّل كفّ

سعد الصّغيرة، مشوهة الأصابع، أبكي قبالتهما، أزيح وجهي عن الشاشة كي لا يراني فخر، أهمّ بإنهاء المحادثة. يرفع فخر لي حاجبيه؛ ألّا تفعلي، ثمّة موت صغير كهذا يدرك روحه وهو حيّ ويلجأ لي لأشاركه إياه، لأشاركه الموت الحياة.

تلعلع الأغنية:

(على دلعونة، على دلعونة، بي بي الغربة، الوطن حنونا...)

تلمع دموع فخر، مهذّب الحزن، فحيث الوطن الحنون يسكر الناس موتاً، وفقداً، وحزناً وفقراً وقهراً.

يعقله الحياء والأمل عن البكاء أمام سعد.

في هذه الصحراء القاحلة تندلع تحت جلده كلّ الذكريات التي تصيب القلب بنوبة حنين هستيريّة، هنا الحنين يعوي بصوت عالٍ. ينظر إلى كفيه على مقود سيارته، يسمع خرير الماء في الكرم المحيط بدارهم، يضغط بقدمه على (دعسة) البنزين، تطير سيارته على طرقات صحراوية شرهة تأكل الأعمار، ويشعر بدبيب الشوك أسفل قدميه، وهو يركض على البيدر عاري الحواس. كيف روّض نفسه على هذا الطيران العكسيّ، وسمح لذاكرة ذئبة أن تنهشه بهذه الوقاحة؟

يسند رأسه إلى الخلف، يشمّ رائحة الزّيت -زيت الزيتون- الذي دلكت به أمه كتفيه، بعد قرصة فرع الأمن في بلدته.

كأنه مجرّد وهم، محاولة ترقيع كلّ هذا الخراب بخيط من لوننا ليعود إلى حالته النقية، بل كانت كل هذه المحاولات مجرد وهم.

يوقف سيارته في الموقف المعدّ أسفل ناطحة السحاب التي يعمل فيها، يدخل هواء رطب إلى رأسه المبعوج بآلاف الحكايات. ثم صورة (سلفي) جديدة.

أضحكُ، أراوغُ فرحه، أقول: من استلّ صورة السلفي قُتل بها..

يقهقه بأعلى صوته، أرسلُ صورة (سلفي) لوجهي وشعري المبعثر في الريح.

يهتف: أتعلمين؟؟

إني أشمّ رائحة صابون زهر الزيتون المنبعث من شعرك، أتذكرين عندما كنتُ أستند إلى كتفكِ؟!

يبتسم، لتورّطه بهذا الإيقاع المُهلك الجميل، يتلمّس غمازته في مرآة المصعد، يلتقط رنّة غنجي (ما أجملها الغمازة ولو فخر)!!، يمتنّ لثباتها في وجهه، هو المطارد إلى الأبد، هو الذي يرى الكون على اتساعه من دون بتول كذبة كبيرة.

هذا الشجن الخفيّ كلّما تذكر البلاد، كلما تكلمنا معاً، كلما أرسل لي بعض نصوصه، هل هو سمة نجيبة يحملها من مثله عندما يغادرون كناقوس رنان على أصالتهم، أم أنّه إشارة على أن اليأس وصل مرحلة الجرب المتفشي، ولا أمل في شفاء الرّوح؟

تصله رسالة من زوجته، تذكّره بموعد ذهابهم إلى السّوق، لتبتاع المزيد من الهدايا والثياب، لتؤكد من خلال مشترياتها لأولئك الأهل في بلدها أنّها سعيدة، لا ينقصها شيء من الرّخاء مع الشاب الذي اختارته، والذي وقف ذليلاً على بابهم منذ اثني عشر عاماً.

يغصّ، يحاول أن يكتب لي عن تجربة ذله، ثم يعدل عن ذلك، مؤكداً أن أحقّ الأشياء بالضبط دموع عينيه، يكتب؛ لله في خلقه شؤون. أضحك لهربه وأكتب؛ ولي في كذبك الجميل ألف شوق وشوق.

دون أن يشعر يعقد مقارنة بينها وبيني، يبتسم بطمأنينة ويقول:

سامحيني أقارن ربّتي بنساء الأرض.

يبتسم بدفء لتواضعي وعفويتي، يعصّه قلبه لتعلّق زوجته بقشور الظاهر، التي تراها تعويذة مضادة للألم، ونكراناً لملاصقة سعد العليل لقلبها.

يرمي علبة سجائره على المقعد المجاور، لا يعرف كيف وصلت زوجته إلى هذه المرحلة من التجبّر والانغلاق على ذاتها.

يرفع صوته- الغناء توءم جميل للألم - ليسود على صوت مارسيل خليفة، المندلع من مسجلة السيارة:

(لأنّ العاصفة وعدتني بنبيذ، وبأنخاب جديدة، وبأقواس قزح..)

أتسمعين؟

إنني أحبّك يا بتول، أحبّك.

قبل الضوء (١٠)

جلستُ في جوف أمي إلى جوار سميح، كان له إشعاع لم أختبره بعد لكنّه ينفّرني حتى من ذاتي، ويشعرني بضيق كبير، أمي كانت تجلس إلى جواره من جهة ساقه غير المقطوعة كي تتجنب قدر المستطاع رؤية تلك المبتورة.

سمعتْهُ:

- العسكريّة يا بتول دلّلتني، وأهانتني، العسكريّة نعم، ربّتْ ضابطاً معتداً ثم كسرته.

- لازلت سيّد حياتك يا سميح.

- أي سيد بساق واحدة، شوفي!

مدّ رجله، لم يكن الوقت بشعاً مع سميح، كان بشعاً به، شعرت به يبكي، وكانت يد أمي تربّت على كتفه. شعرتُ بغثيانها وصرتُ أعرف أنها كلما رأتْ ساق سميح ستتقيّأ.

أمي لا تريد أن تراه عارياً أمامها، ضعيفاً ومستسلماً، طالما كان عنيداً، عتيداً، يتباهى برنّة حذائه العسكريّ في أرض الدار، وبنجومه اللامعة - هذا ما روته لي لاحقاً -

لكنّها الآن تسبر غموضه وضعفه معاً، وهذا الدفتر أمامه دليل قاطع على أنّه لم يعد قادراً على حماية أسراره وحرمة حياته السابقة، وفجيعته بروحه.

كانت أمي تفخّخ كلّ كلامها مع سميح بعبارات إيمانيّة، دافئة:

- قل الحمد لله، قدّر الله ورضينا يا سميح، انظر، كم مات من شباب، يا حسرتي عليهم، وعلى أهلهم.

ليس من العسير على أمي مطالعة الحزن والإحساس بالندم وبالألم اللذين ينهشان قلب سميح. وضعتْ أمامه على الطاولة ثلاثة كتب: (اسمه الغرام، شرف، أنا عشقتُ).

- خذ، أحضرتها من مكتبة ديمة، هي انتقتها لك. لاحظتْ ابتسامة غامضة على وجهه عندما ذكرتْ ديمة، تمتم:

- علوية صبح، صنع الله إبراهيم، محمد المنسي قنديل... كم خطيرة هذه الديمة!!

تذكّر سميح أنّ علاقة معتصم بديمة كعلاقة السّطو المشروع، سطو عاشاه بجمال، وتفرّد، كان يغبطهما...

- عرفتْ شيئاً عن معتصم؟ هل من أخبار جديدة.

- لا، لم يتواصل مع أحد منذ رسالته الأخيرة تلك.

كنتُ أراقب من (جوات) أمي هذه الانكسارات القاهرة، ركلتها، لم أعد أطيق هذا الانتظار المرير إلى جوار سميح، يخيفني هذا الضوء المنبعث من أمي عندما ترى محزوناً أو مفجوعاً أو مصاباً، كانت أمي دواء، وجهها يضيء أمام الموجوع كشمعة في الظلمات.

ركلتها أكثر.. لأنّني لا أطيق (عربشة) عمّي العسكريّ على الثقافة، ولا أطيق سيرة معتصم، أحسّه ضرّتي التي سببت الكثير من الشقاء لعيني ديمة، اللتين أحبهما بكامل ما أوتيت من قلبي - حبّة العدس -

ابتسم سميح لعيني أمي الدّامعتين.

- عندي دوام، لازم روح، راح أتأخر...

- مع السلامة، انتبهي لولي العهد؛ يردّ عمي سميح مدركاً أنها تهرب.

مضت أمي بعيداً عن هذه المحرقة التي لا أحبّها، واسمها سميح، كنت أسبّ كما سمعت «أبو فهد» يسبّ، وأنا وأمي نبتعد عنه في ذلك اليوم.

ناداها سميح، التفتت أمي إلى الوراء:

- نعم.

- سلمي على ديمة، إذا عرفت أيّ شيء عن معتصم طمئنوني.

- حاضر، تكرم عينك.

عند بوابة البيت خرجت جوريّة مرتبكة، لم تكن تعلم أمي أنّها في البيت، ظنّت أنّها في الدّوام، سلّمت على عجل، واستفسرت عن غيابها، فبررت عمتي جوريّة أنّها متعبة، وأغلقت باب غرفتها الذي كان موارباً في وجهنا، وكأنّها تخفي سرّاً كبيراً.

سمعتُ دعاء أمي مرتلاً مثل ابتهالٍ: الفرج، الفرج، يا رب الستر من عندك، والهداية أنت أرحم الراحمين.

شعرتُ بالطمأنينة، لا أعرف إن كانت عمتي جوريّة المقصودة بالدعاء أو أمي تقصد نفسها هي، سعدتُ وشاركتها الدعاء كي أنعم برضاها ورضا الله في ظلمتي هذه.

إشارات العتمة (١١)

فخر في تلك البلاد البعيدة، يؤكد لي أنه لم يكن يعاني من عجزٍ عاطفيٍّ، لكنّه كان حذراً في تعامله مع كلّ النساء اللواتي قابلهن في حياته.

عندما سافر إلى الإمارات أوّل مرة، كان على يقين أنّه سيعود إلى بلده، ليبلّ رمق حنينه، لكن أن يعود كلّ يوم عبر عينيّ أنا، وصوتي وحرفي، وبطني المكوّر، وقصتنا المجنونة، هذا ما لم يكن في حساباته مطلقاً، هو فخر الذي يحترف الحياة، وجنون الشّعر، ويقاتل في سبيل الحقّ والكرامة...

نوع من الترف ما يشعر به معي، وهذا الاستسلام اللذيذ لحبّ نهم يأكلنا كلينا، رائع حدّ الإغداق.

يقول: إنني لا أشبه عامة النّاس، ولا النّساء في شيء.

منذ بداية حملي وهو يراسلني كلّ يوم مرة واحدة على الأقل، حتى إنّه حفظ اسمي على هاتفه المحمول باسم ماجد العنزي، وصار الوقت يستعبده وهو مربوط بخيط خفي إلى إشعارات الواتس آب القادمة من رقم ماجد العنزي. كيف وصلنا إلى هذه المرحلة من الحكاية، كيف كبر بطني وارتكن الجنين في أحشائي واثقاً بي أنا المخطئة؟!

يضحك للاسم، يتذكّر رنّة ضحكتي عندما أخبرني أنّه حفظ رقم هاتفي المحمول باسم ماجد:

- يا حبيب قلبها لماجد.

ثم أضيف: أنا سأسميك على اسم مديرتي الشّيطانة.

حدث أن غبتُ ثلاثاً وثلاثين ساعة، تناوبت على روحه فيها جميع أنواع التوتر والهلع، كل الاحتمالات جائزة، حتى جاءت الرنّة من رقم ماجد العنزي كنجمة أضاء لها الكون بعد قلق أتلف أعصابه أو كاد.

كان جاهزاً بشكلٍ كاملٍ لممارسة أقسى أنواع العتب واللّوم العاطفيّ لهذا الغياب الموغل في جلافته.

في تلك الآونة صارت موجة القتل بيد الله وذريعته سارية في بلادنا البعيدة، وفي مناطق متعددة صار التنظيم يسيطر عليها، أما من هم منهم وعلى المشارف الشرقية فباتوا يهددون القرى القريبة والبعيدة، ويقطّعون أوصال المدن.

انقطعت الاتصالات ليوم ونصف اليوم، حتى تمّت تصفية أعداد كبيرة منهم، وتمّ إيقاف تقدمهم باتجاه الريّف الشّرقيّ:

- أين أنتِ؟ أين أنتِ؟ والله ذاب قلبي من قلقي عليك.

- الوضع مكركب، والاتصالات مقطوعة. لا تقلق أنا بخير، لا حيلة لي مع الأنترنت، آسفة لأنك قلقت.

- بخير أنت، ألف الحمد لله، أرجو ذلك دائماً، والبيبي كيف هو؟!

كنتُ بحاجة لهذه المسافة من الزّمن، كي أمارس إرهابي العاطفي بخبثٍ حلو، كي يأخذ الشوق هذا المدّ الصّاخب اللّذيذ بيننا.

- غداً موعدك عند الدكتور، لا تنسي، سأنتظرك، لن أترك المكتب حتى ترجعي، وتخبريني بكل ما يقوله الدكتور.

- حاضر، يا ضوء القلب.

- حاضر يا ضوء القلب؟! يا مستبدّة كم أحبّك!!

ضمن فلسفته كان كل ما نحلم به نحققه إذ أردناه، يبدأ عبارته المشهورة للماغوط: يا بتول الشاطرة، ماذا يقول العصفور الأحدب؟

أكتبُ له بسرعةٍ؛ أعطني خمس أصابع مطبقة بإحكامٍ على شيءٍ ما بإيمانٍ...

ثم يبدأ إكمال العبارة معي لتظهر تتمتها منسوخة طبق الأصل على محادثتنا معاً...

لأغير لك وجه الأرض.

أضحكُ لتبختر ألقه، إنه لم يشعر أنه زوج رغم زواجه الفعلي منذ سنوات طوال، الآن يتمادى في ثورته العشقية، يعلم تماماً أنه في أعماقه زوج لي وحدي، يرفع صوت المسجلة على جنون الدخول الأول في السيمفونية الخامسة لموزارت..

التوازن...التوازن يا بتول، نحن في أمسّ الحاجة إليه؛ يهمس لي..

إشارات العتمة (١٢)

(معتصم، هذا معتصم يا بتول، أتعرفين من هو معتصم، هو الذي عاش عمره كلّه وهو لا يملك وسيلة للهجوم). تتكلم ديمة، وكأنها ترافع أمام الله مطالبة بحياة أفضل لحبيبها، وبفرصة جديدة كي يلتقيا ويعيشا رغد الوجود وليس فقط مآسيه، مثبتةً لي وبشكل مثير للتندر أنّه من نور.

أضحك:

- اسكتي يا مجنونة، لا تبالغي كلّ الرجال يتقنون الهجوم، ويتقنون الهرب والتملّص والتخلي متى يشاؤون، أغمزها، فتعقد حاجبيها:

- أحكي ما أعرفه، معتصم لا يكتنز سوى الدّروع، في بلاد وبيئة مخلوقتين للاختراقات والاعتداءات، ومهيأتين نفسياً للقبول والرضا والمجاهرة بالحماية.

لم نكن نعرف أنا وديمة أن «معتصم» يراسل «سميح» وهذا الأخير كان قد انقطع عن سؤالنا عن معتصم فجأة.

بدأ يفرّغ محتوى الرسائل التي يرسلها إليه معتصم بانتظام- بعد أن علم هذا الأخير ببتر ساقه وملازمته البيت ولجوئه إلى الكتابة- على دفتره الفضيحة، تحت عنوان سارق المطر ويكتب كلّ الرسائل بصيغة ضمير الغائب دون ذكر اسم صريح؛ بحيث يحفظ لمعتصم بوحه مهما لحق الدفتر من خطر، ويحفظ لنفسه حق تسليته الشرسة الخالصة تلك.

البوحُ فنّ عظيم، يمارسه كلاهما، من دون رادعٍ، أحدهما فقد ساقه، والآخر يسنّ نصل الفراق، ويقرر ألا يعود إلى بلادنا مهما كانت الظروف.

وقد تلويتُ دهشةً من جرأة سميح- وهو ينسج بقلمه طريق وصول لمعتصم أكثر إقناعاً من زهو أوروبا كلها- عندما سلم دفتره لي وقال: أرجوك ألا تخبري ديمة، معتصم يعيش بدايته عارياً من كل شيء، وإذا وجدتِ متسعاً من الوقت، حاولي أن تقرئي..

وجدت نفسي فوراً لا أملك الصبر بل أملك الوقت، الوقت والشوق لأقرأ عن معتصم باسمه الجديد: (سارق المطر)، أشعر بدهشة غامرة، فاللقب الجديد الذي اختاره لمعتصم ملاصق وموائم تماماً فقد سرق معتصم قلب أجمل ديمة على سطح الأرض وجعل روحها غير قادرة على طيّه في سراديب النسيان.

سارق المطر (١)

يجلس والصغيرة في حجره، لا يعرف كيف انسكبت هذه الطفلة في روحه، بهذه الطريقة المرهقة في وجعها، سمع أمّها التي كانت بعد على ظهر (البلم)، ولم يهزمها الموت والغرق، تناديها:

- سوسو، كرمال الله، بكفي راح تقتلييننا أنتِ، بترجاكِ توقفي عن البكا يا ماما...

لذلك دأب على مناداتها سوسو.

لم يُظهر أيّة أوراق على شاطئ اليونان، أمّا الصّغيرة فسأله عنها فريق من الصّليب الأحمر، فقال:

- ابنتي؛ ياسمين الحيدر، وأشار إلى البحر ليفهموا أنّ أمّها غرقت.

زوّده شاب بما يلزم الصّغيرة - التي كانت في بداية عامها الثاني- من ملابس دافئة وعلب حليب، وغطاء صوفيّ، وأغراض عدة.

ضمّها إليه، يحترز من قلبه، يدميه هذا التّعاطف الرّهيب، فقد هاتفه المحمول في مياه الأتراك، وفقدت سوسو أمّها وأختها في مياه اليونان، عوّضه بحر إيجة بهذه الصّغيرة، هذا النقاء في هذا الكائن البشريّ الصّامت في حضنه يردّ له قسماً من إنسانيته الضّائعة، يبرهن أن الإنسان للإنسان مهما بلغ توحّشه.

تدرّب على الصّمت والخيبة كثيراً، لم يحدث أن اعتذر من الله مرّة واحدة في حياته، فهو يرى نفسه (العبيط)، الطيب، المواطن الصالح، بلا أخطاء؛ يراعي القوانين ويدفع الفواتير ويساعد أهل ضيعته، لكنّه

الآن يحتاجه كثيراً، يشعر بارتباك في علاقته معه، لأنه كان على صراط جميل ومستقيم فآلمه الله بطرق موجعة، تضرّع كي يساعده، رجاه ألا يكون قرار احتفاظه بالصّغيرة خاطئاً.

في جهة بعيدة تماماً عن بحر إيجة وصهيل موته، كان أبو سارق المطر في (حاكورة) الدّار، إلى جوار شجرات التّفاح التي غرسها ابنه، يسمع صوت ولده عندما كان طفلاً، يقف على أركان لهفته ويهمس:

(يا بني، الله يطمن قلبي عليك. يا رب يكون يومي قبل يومه)

يلقي بكلّه على جذع الشّجرة، التي غرسها ولده، الذي انقطعت أخباره، ينشج كالنّساء، يشدّ على جذعها بكفّين مجعدتين:

ذهب الذين أحبّهم، وبقيت مثل السّيف فردا...

سارق المطر في جزيرة ساموس انقطعت كلّ صلته بهذا البيت الشّعريّ، لعمرو بن معد يكرب الذي طالما كان أبوه يردّده إثر رحيل أخيه اغتيالاً، منذ مطلع الثّمانينيات.

يقف حاملاً الصّغيرة مع طابور طويل، في انتظار سفينة تحملهم إلى أثينا، كانت الأعداد بالآلاف، والازدحام كأنهّ في يوم الحشر، هذا ما يؤكد أنّ الإنسان خُلق للحشر، للرحيل، للموت، وللمحاسبة. وليكون في فوهة موتٍ فخورٍ بعافيته.

هناك وقف إلى جوار الكثيرين، يتذوّق طعم الحقيقة؛ إنّه مازال على قيد الحياة، وسوسو مازالت على قيد الحياة برفقته، تضج بطفولتها الصاخبة، ينسيها اللعب والصخب أنها يتيمة، ما أرحم ذاكرة الطفل في أوقات المحنة! إلى جواره شابّ حلبيّ، عرفه من لهجته، لم يكن فوق رأسيهما لا شمس، ولا ظلّ، غيوم سوداء راكضة، تتقدّم نحو هذه البلاد السّافرة ببردها.

أصابع كفّه تطبق على كفّ الصّغيرة، كانت في البداية ترفض الاقتراب منه ومن كل من حولها، ثم لم تجد إلاه عندما كانت تنظر بفزع إلى المحيطين بها فلا تعثر على أمها وأختها بينهم، فتطمئن لوجهه الذي ألفته عبر الرحلة الطويلة.

هنا العديد من الأطفال التائهين بأيدٍ غريبة، يُسلّمون إلى مراكز الرّعاية، لتولي العناية بهم، وقد فقدوا ذويهم، حتى يظهر من يسأل عنهم.

كيف يهطل الوجع في هذه البقاع الغريبة، فينكشف السوريّ للسوريّ بكلّ هذا العريّ، نظرة الحلبيّ لاسعة، تلغي الأعراف والأعراق والقوانين، نزلت دمعة متلطّية على خده، نظر إلى سارق المطر:

- سلّمها يا خاي، سلّمها لدار الرّعاية، باقي ست دول، لن تقدر الصغيرة أن تكمل الطريق معك.

أمسك سارق المطر عن الكلام، يعلم أنّ الموت القادم لا موعد له، ويعلم أنّ هذا الحلبيّ قد كشف حقيقة سوسو وأنها ليست ابنته.

لم يردّ، ذهب في صمتٍ كافر الحضور. شدّ على يد الصغيرة أكثر، وكأن أحداً سينتزعها منه، إنها الأقدار ونحن لا نملك القدرة على تحسينها.

لا يعلم لماذا يختار الله كلّ هذه الحياديّة الموجعة في مثل هذه المواقف! أهذه تجارب وعلينا الصبر لنفوز في الامتحان، ما أطوله من امتحان يا ألله.

نظر إلى الصّغيرة، كانت تأكل قطعة بسكويت باستسلام ولذة الباحث عن البقاء، مستفهمةً من دون صوت، من عيني سارق المطر الذي حملها:

- يا أهلي أنتِ، لن أتركك هنا، إما أن نموت معاً أو نعيش معاً، لستُ دمية تدرّبت على الحياة، أنا أعرف قيمتها تماماً صدّقيني يا سوسو.

في مقدونيا لبثوا وقتاً قصيراً جداً، توجّهوا إلى الحدود المقدونية الصربية، درجة الحرارة منخفضة جداً ليلاً؛ هناك أمضى أطول ليلة في حياته تحت أنظار الشرطة المقدونية، ريثما يتمّ تسليمهم للصرب.

شعر سارق المطر أنّ هذا البرد قد يغتال الصّغيرة. لن يخاطر، لن يتركها، ولن يترك روحه تزهق تحت دبيب إبر الصقيع، وهو الذي حرمها من فرصة البقاء حية في الملجأ اليوناني.

كان قديساً على طريقته، لفّ البطانية على الصّغيرة، وحشر بدنه بين تسعة لاجئين آخرين، جعلها في حضنه، وأخذ يتنفس تحت غطائها، في حين يزعق فتى؛ من السّاحل السوريّ باكياً في الخيمة بموال غريب.

هنا يكتظّ الألم في الخيام والحناجر، في هذا اللّيل الوحش، وفي درجة حرارة تسجل أربع درجات تحت الصفر، على أعتاب تجمّد وشيك، حيث تبدو الجماعة كلها أقرب إلى سقوط وغياب أبديين، يقطع عويل تجمّدهم ما يُلقى عليهم من شرطة المقدون؛ حرامات وعلب مياه ساخنة بحركات من اعتاد سقم بلاده، وجبروت صقيعها.

يطول اللّيل، لا يبصر سواهم في هذه الغابات المخيفة بضراوة خضرتها ونقاء بردها.

في الثّانية ظهراً من اليوم التّالي، يعلنون بدء الحياة باتجاه جديد؛ من صربيا إلى كرواتيا...

قبل الضوء (١١)

صوت أكرم - الذي سأعرف فيما بعد أنّه خالي - يطوّقني بسخاء، أشعر بفوز لا حدّ له عندما أسمع صوته، أشمّ رائحة رجولة عميقة، أحاول أن أتفحّص ملامحه وأخزّنها، كي أتعتّق (جوّات) أمي بتول فأصير شاباً كخالي أكرم، فيما لو كنت ذكراً.

بدا خالي فقيراً من إنسانيته وجماله، عندما دخل بيتنا، نزع البارودة الرّوسية المعلّقة على كتفه، ووضعها على (الكنبة)، كانت فوهتها باتجاه بطن أمي، في عيني مباشرةً، هل هناك حكمة ما في أن تكون عين النار أكبر من عيني؟!

تبعد أمي البندقية إلى ما وراء الباب، وتجعل فوهتها باتجاه السقف.

يحمل (بيدون) مازوت مجدّداً، أشمّ رائحته الحريفة، أمي ترى في حنان خال أكرم هذا بطشاً عاطفياً لم تعد تحتمله، هي تحبه، وتخاف عليه، تكره الدّروب التي سلكها، وتخاف ما ستؤول إليه لأن ما بُني على باطل هو باطل وهو- أي خالي- مثل ذئب صبور يخرج كلّ يوم مع رفاقه إلى اللّجاة أو الصّفا، يمشّطون الوعر والمغارات، ويقتلون كلّ من تقع أيديهم عليه من التنظيم الداعشي الأسود.

هذا التمرّس البشع في القتل، انتهجه خالي بعد أن خُطف رفيقه سالم، وهو طالب جامعي في كليّة الصيدلة، كان سالم وحيداً لأبويه وفي الحادية والعشرين من عمره.

طلبوا مقابل الإفراج عنه وتسليمه تسليم ثلاثة من قادة الدواعش، محتجزين بحوزة اللّجان الشّعبيّة، هذه بدورها رفضت تسليم القادة،

وفاوضت على استلام تسعة مخطوفين مع سالم مقابل إطلاق سراح القادة، فكان الردّ أن نشر هؤلاء القتلة في صبيحة اليوم التّالي (ڤيديو) وصوراً لرأس سالم المقطوع، وقد وُضِع الرأس مغمض العينين فوق ظهره الممرّغ على الأرض، موثوق اليدين.

بمشهد هزّ الأرواح، على امتداد ساحة البلاد، وجعل كلّ صفحات التواصل الاجتماعي موتورة تطالب بردّ عاجل وحاسم من الفصائل المحلية وأجهزة الدولة الأمنية.

يعرف خالي أكرم أنّه لن يأتيَ أحدٌ بعد سالم ليحلّ محلّه، ويعرف أنّ هذا الڤيديو الذي حفظه في جواله المحمول مع الصّور كلّها ليراه كلّ يوم، يمهّد الطريق ليصنع منه طاغية، وينسف كلّ تاريخ أكرم الذي كان قبلاً رفيقاً لسالم برأس مثبّتة وسليمة بين كتفيه.

تحضر أمي له الشّاي، يجلس صامتاً.

- جائع؟ سأحضر لك الفطور.

- لا شبعان، شبعان يا بتول، شبعان من كل أنواع القهر في هذه الدنيا الكلبة، أتعلمين أنّ الشبع أول الجوع؟

تقطع أمي استرساله الذّابح:

- يكفي يا أكرم، ليرحمه الله، حاول أن تنسى يا أخي، سالم ليس وحده من ذُبح أو مات، عمره خلص.

يتململ خالي أكرم، أشعر به، يخاف أن تهديه أمي إلى إنسانيته، وهو الذي يطمرها، فهو لا يثق في حياة تغيب فيها الثقة، بل يعيش متناغماً مع هذه اللعنة الجديدة...

- يا ليت خلّوا عينيه مفتوحتين، اشتقت لعينيه.

يغصّ، ينقطع صوته ويغرق في قرار سحيق، يرقد جثة مع رأس سالم، يغيّبُ القهرُ الصوتَ، كما تغيّبه الأنظمة القامعة، تضع أمي يدها على بطنها لتخبرني أنّ الموت مصدر كلّ الأحاجي الموجعة، وأن ردّة فعلنا في أزمنة الحرب هي ما تقرر تاريخ البشريّة القادم. تقترب من خالي تحاول أن تعلقه بأمل منتظر بأنها غيمة وستزول، يبعد يدها عن كتفه.

أرفسُ كعادتي عندما لا أستسيغ هذه الأفكار، تضع يدها الأخرى التي أبعدها للتو خالي فوق بطنها، لتفهمني أنّ الانتقام لا يجلب السّعادة، ولكنّه يجعلنا نعيش تعاسته كتعويض، نعم تعاسة برفاهية القوة.

أهدأُ قليلاً..

الرّجل يتعلّق بمن يبكيه، وخالي أكرم تعلّق بسالم.

رفستُ مجدداً أمي بتول في جدارها، رفسة أجفلتها هذه المرة، رفعت سقف التّحدي عالياً، كنت أريد أن أخبرها أنّ الانتقام دليل عافية - بعد أن هدأتُ وفكرتُ - ودليل صحّة لإثبات وجودنا، ولسدّ رمق كياننا المهدد، والمهدور دون رحمة من هؤلاء القتلة.

ولفرط إنسانيتها ومسالمتها، صرت أخشى عليّ منها؛ أخشى أن تحجّم الفاجعة بهذه الطريقة المثاليّة، لنتمكن من العيش بسلام حالم، ليس له وجود سوى في خيالها وفوق ذلك من المستحيل أن نناله.

إشارات العتمة (١٣)

يجلس فخر سعيداً هذه الظهيرة في انتظاري، هو رجلٌ ممتلئٌ بالمبادئ، كان يعاني قبلي يتماً عاطفياً سرّيّاً، لا يترك له الخيار في أيّ شيء.

عندما جئتُ إليه، تمرّد عليه قلبه، فرض ضوابط جديدة، وفرقاً شاسعاً سيُفرح روحه، يحبّ ما أتمتع به من ذكاء، يزداد إعجابه وتعلقه بي يوماً إثر يوم. لم نكن نعرف كيف تُمارس الخيانات أو تُدار فليس في تاريخه أو تاريخي أيّ أثرٍ لها، لكننا دخلنا في مرحلة من اللاوعي السعيد أو لنقل في مرحلة الفرح المُريب.

خلال عام منصرم صرتُ أفوقه عمراً، على الرّغم من أنّني أصغره بعشرة أعوام، جعلتُ قصتنا متسعة بانتظارنا الجميل، وجنوننا العذب.

وهو في كلّ لحظاته معي يرتشف نشوتي بأناقة، ويبني لي داخله عالماً على قياس الآلهة وليس البشر.

انتظار الجنين ومتابعة نموه بهذه الطريقة المخاتلة أهم من الوجود نفسه، للحظات أحسب أن الله سبحانه سيحاسبني قبل البشر جميعهم في يوم الحساب وكأنه جرمٌ يختصّ بي ويلبسني وحدي، خطأ مقصود سعيتُ إليه ولا يمكن أن تكون الحياة من بعده كما كانت آمنةً من قبله.

نعيش انصهار كائنين في لحظات سموّ عتيدة، رؤى شاهقة تحوم في فضاء غرفته، أشعر بكل ما يشعر به من خوف وتوتر، أكاد أراه، لأوّل مرّة منذ اثني عشر عاماً يبحث عن ملابس الأطفال على صفحات الانترنت.

كان مزدحماً بغيوم سعادته. وهو يخبرني كيف يمضي يومه.

وهذا الحمل المفخّخ بالأمل، والقلق، والفضيحة يعدّ لجولة قد تدوم عمراً كاملاً.

ديارات بيبي، صور لملابس صغيرة زرقاء، حمراء، زهرية، صفراء، قبعات قطنية، بأشكال دببة وأرانب، ومطرزة بما شاء الله وتبارك الله، فساتين (مكشكشة) ومزينة بفلّ صغير وخرز لامع، صور لأطفال يعدونه بأنه سيصبح غنياً بقلبه، وبما يملك من فرح، ألعاب بلاستيكية مبهجة وأسرّة بحجم صغير وقضبان خشبية تحمي المواليد الجدد، سجن حماية رهيف، يضحك لأن السجون تفزّ له في كل تداعيات خواطره وأخيلته.

لم يكن يعنيه جنس الجنين، هو يحبّه بتجبّره الحزين المتعالي، يحبّه، وسيسمّيه بأحد أسماء الحبّ الحسنى، التي تملأ اللّغة العربيّة حسب مراحل نموه من بذرة إلى غابة... حبيبة، غرام، شوق، وله، عشق، هيام، والكثير الكثير..

ينظر إلى ساعته، انتهت ساعات الدّوام الرّسميّة، وعليه أن يغادر مكتبه وناطحة سحابه، يحنّ إليّ في سطوة غيابي، ألازم ذهنه وقلبه معاً كما يلازمني هو في كل مكان أروح إليه، يعلّق جهازه المحمول في كتفه، ويتوجه إلى مقهى مجاور، يشرب القهوة، ويبحث عن مواعيد الرّحلات في شهر تموز عبر الشبكة، ليحجز تذكرته، تطالعه صور الموت، وضجيج الأنباء عن الخطف والقتل، والذّبح، يراقب هاتفه المحمول؛ كلّ ضوء هو كفيل بإشعال فتيل قلقه وجذله معاً، وهو ينتظرني ينتظر المرأة البسيطة كعوده، الأنيقة كقصيدته.

أُضيء هاتفه المحمول برسالة نصيّة كتبتُ فيها:

(صبيّ، طوله ١٤سنتيمتراً، وزنه ١١٠غ، بصحّة تامّة، وبحبّك، نيّالك قديش بحبك)

قام من جنون روحه، مشى، المشي لا يكفي، الركض ربما، الصراخ، لا يعرف ماذا يفعل، كاد يرقص إلى جوار قهوته، وطاولته (ارقص يا فخر كما لو أنّ لا أحد يراك).

- هذه البلاد ضيّقة، ضيّقة جداً، يا بتول، وروحي بالغة الاتساع، والانتماء إلى ذلك الجنين في بطنكِ، في تلك المحافظة الجنوبيّة في بلادنا.

أتعرفين ماذا يعني أن أنجب منكِ، أتعرفين معنى وجودكِ في حياتي في زمنٍ شحّ فيه فرحي حتى نضب، أتعلمين وأنتِ المرأة التي أعشقها؟ ذلك يعني أنني أدركت جنتي في الحياة الدنيا يا بتول، أدركتها بك ومعك.

سارق المطر (٢)

ست ساعات من المشي وصولاً إلى الحاجز الكرواتيّ، أمضى سارق المطر في كرواتيا على حاجز للتفتيش مع أكثر من خمسة آلاف لاجئ يوماً ونصفاً، كانت الماكينة التي تفحص الأمتعة والحقائب معطلةً، كالرّحمة، كالملائكة في حالة غياب مدقعٍ، معطلةً مثل كلّ شيءٍ منذ بداية المعبر الأوروبيّ، كأن إعطاء الحياة كفرصة ثانية لهؤلاء العابرين حماقة، لا يجب أن تتكرّر مرتين، وكأننا بشر لم ندرك سن التمتع بالحياة أو ما يؤهلنا لعيش كريم.

ياسمين الصّغيرة في حجر سارق المطر، يواجه بها خراب العالم الدّاخليّ، الذي يحسّه في كلّ نبضاته.

يمدّ لها زجاجة الحليب، تضحك عيناها، يضحك لها، في هذه الجسارة التي اقترفها بداية الحياة، (بصبوصة) فرح، يرفع أصابع نحيلة متيبسة، بدت منهارة بكاملها ليكفكف دمعة مُذلّة، خرج بها عن صمته.

نزعت سوسو رضّاعتها من فمها:

(تا..دا..، ما..ما) بدا الإيقاع وكأنّه إزميل يفتّتُ روحه الهشّة.

الصّغيرة مضطربةٌ كغدٍ لا يريد المجيء في زمن الهجرة، عبر معبر أوربيّ، يرى في عينيها تمزقاً وشتاتاً، هي لا تعرف سارق المطر، لكنّها اعتادته منذ بداية الرّحلة عبر (البلم) الرّحيم، تمشي قربه متلعثمة بخطوها الجديد، تبتعد عنه قليلاً، يناديها: سوسو، تعالي.

فتركض إليه كعمرٍ مخذول، يتطاول على شعور بالعجز يجتاح داخله. يحاول أن يخنق أمله بشكلٍ عمليّ ودقيق كي يصبح قادراً على المضي والاستمرار.

وصل دور مجموعتهم إلى ماكينة فحص الأمتعة؛ محتويات الحقائب كفيلة بالسماح لهم بالعبور إلى الجنّة وليس إلى كرواتيا فحسب.

بدا الشرطيّ الكرواتيّ ومن معه كأنّما أصابهم عطب داخليّ مفاجئ، يمدّون أيديهم إلى الحقائب فترتطم بألبسة مبلولة، بقايا خبز، ودواء، يعيدون الحقيبة إلى صاحبها، يمرّ بسلام..

سارق المطر مدّ حراماً، وحقيبة فيها حفّاضات الصّغيرة، علب الحليب، وبعض المسكنات، والصّغيرة محمولة على يده الأخرى. هل الحزن هو بعض غذاء القلب؟! يسأل نفسه وهذه العيون الغريبة تحيط به. لماذا لا يجد ما يفسر به هذا العذاب الصريح والهمّ القاتل اللذين يعيشهما كل السوريين!

ابتسم الشرطي المعطوب لسوسو، نزع سترته وأعطاها لسارق المطر، وتكفّلت شرطيّة أخرى بلفّ لفحة من الصّوف على رقبة الصّغيرة، ضحكت لها الصغيرة، هذه الضّحكة المغفرة و التي تمارسها سوسو لتسامح الدّنيا قاطبة، وكأنها طير لا يملك حنيناً لأيّة بقعة من بقاع الأرض، فقط تعلّقها اللّجوج بذراعي سارق المطر، وذاكرة مجلجلة بقدر ما كانت تنسيها يتمها لتلعب، تستيقظ ذاكرة طفلية فطرية كلّما بدّل لها حفّاضها، تحاول أن تحافظ على لفظة ماما بطريقة فذّة، فلا ترشدها الفاجعة إلا إلى مزيد من البكاء والصراخ، ثم تحطّ برأسها كحجر أنهكه الصّقيع على كتف سارق المطر- تنهنه، ماما، ماما- الذي يحثّ خطواته صاغراً باتجاه سلوڤينيا؛ إذ كان محظوراً على هذه القطعان المهزومة من دخول هنغاريا، هنا كلّ دولة ربّة لحدودها، لذلك يتحتّم على هذه القطعان أن تلفّ حول هنغاريا من سلوڤينيا، لتصل إلى الحدود الهنغاريّة النمساويّة، أربع ساعات أخرى من المشي تلزمهم في رحلتهم الجديدة، وموت مُمنهج آخر فصيح.

قبل الضوء (١١)

كلّ هاتف من رضوان لا يرنّ رنيناً، بل أشعر به - وأنا (جوّات) أمي بتول - وكأنّه يفحّ كما الأفعى، كل ما يتعلق برضوان يجيد لغة عليلة واحدة؛ اتصالاته، رسائله، طريقة كلامه، نبرة صوته، وكأن الله خلقه على صورة وحيدة مُؤلَّف عليها، لغة تضطهد من حولها، ولا تنصر مظلوماً ولو لمرة واحدة حتى على سوء ظنّه، لغة قاسية وباردة.

في إجازته الماضية كنت أستشعر صراعاً بين قبيلتين عندما تنخرط حواسي كلّها دفعة واحدة لأسمع، لقد عشت الكثير من السّهر والقلق، ويده على بطن أمي بتول وأنا أسمع حديثه المشبع بالبدائية والنزوة والفوقية والقسوة، ثم أبتسمُ في سرّي وأحمد الله أنه ليس أبي الحقيقي كنوع من انتقام غير نظيف.

كان يلزمني الكثير من الصبر والحقد ربما لأحتمل ما يبثّه فيها من سرّ الرّغبة، يشعل هذا الاشتهاء حولها، ويحاول أن يسرّبه إلى داخلها المغلق بإرادتها الباذخة، فأمي لم تكن لتخون فخراً حتى وهي في سرير رضوان- فلسفة مضادة، تحاول هذه المجنونة أمي أن تبررها- أما هو فكان يحاول أن يمرر تلك الشهوة كما يسرّبون حقن الأدوية تحت جلد المرضى، فأنكمش في لحظات كان ينبغي أن تكون أمتع اللحظات في الوجود.

منذ وصل رضوان، أقلعتُ عن التلصّص بعين واحدة على أعراس أمي بتول الشّهيّة.

تدرّبتْ حاسة السّمع عندي، ونَمَتْ كلذّة بفضل رضوان، ما إن يرنّ الهاتف حتى أدرك من الكلمة الأولى لبتول أنّه رضوان على الطّرف

الآخر في تلك البقاع البعيدة فأنكمش وأغمض عينيّ كي لا أسمع ما سيهطل من كلام.

كان يتحدث بشأن سيارة، قد اشتراها، وسجّلها باسم بتول لسفره الدّائم.

تولّى سميح عمّي قبل أن يستغلق عليه الكون بقدم واحده تسجيلها الكامل باسم أمي، ووضعها في مكتب لتأجير السيارات، وكان صاحب المكتب يتصل بسميح ليذهب ويأخذ المرابح المادية العائدة علينا من تأجيرها بين الفينة والأخرى، أو عندما يتم تأجيرها لفترة طويلة نسبياً، خاصّة في مواسم الصّيف؛ حيث يعود المغتربون لقضاء عطلاتهم، وإجازاتهم الصّيفيّة مع أهاليهم، متمتعين بأنّهم مواطنون غير مقيمين في هذه البقاع الملوّثة بالحرب، وقد صاروا أي أهل البلاد الذين يرغبون بزيارتها قلة في السنوات الأخيرة، مثبتين مقولة «ابعد عن الشّر وغنّ له».

وعندما فقد سميح ساقه، تعذّرتْ عليه الحركة، والقيام حتى بأموره الخاصة، فهو يحتاج دائماً إلى من يحرّك به عجلات كرسيّه المتحرك ويدفعه أو يرفعه عند حافة درج أو رصيف، فصار يفضّل ملازمة بيته، وصرتُ أذهب في بطن أمي بشكل دوريّ، أو عندما يتصل بنا صاحب المكتب لنتولى المهمة. ألستُ مشروع رجلٍ عظيمٍ؟!

سمعتُ رضوان يحدّث أمي عن الفقر الذي يغتال الأمان والأحلام، وكلّ ما هو جميل في الوجود، وكأنّه يعتذر عن غيابه الممطوط، وأنّي - أنا القادم - يجب أن أعيش بمأمن من الفقر الحقير، فيحيي حواره هذا القلقَ في جوف أمي، ويبدأ قلبها يدقّ باضطراب سريع، لا أعرف أسببه الندم لتفاني رضوان في حمايتي، والعمل بإخلاص لتقديم حياة مرفهة

لي، أم الخوف لأنني لست ابنه، وهذا ما قد ينكشف ويسفر عن جريمة كبرى؟!

تحدّث أيضاً عن مجيئه الثّاني، سمعت حديثه بالكامل، فقد جافاني النّوم بسببه، بسبب صوته البارد، قالت له بتول:

- اجمع الإجازتين معاً، لتكون هنا في موعد ولادتي، صعب عليك أن تأتي مرتين خلال فترتين متقاربتين.

- لا سأنزل أسبوعاً لأطمئن على سميح، يا حبيب قلبي يا سميح على هذه المصيبة، ولأطمئن على ولي العهد، ثم أرتب لإجازة أخرى عندما يقترب موعد ولادتك حبيبتي.

- كما تريد، الله ييسر أمرك، متى موعد وصولك؟

- بعد يومين، عصراً أكون بالشّام إن شاء الله.

- بالسّلامة، يا رب.

لم أكن سرّاً بالمعنى الحرفيّ للسّرّ، لكنّني على ما يبدو جُيّرتُ بالنسبة لهذا الأب رضوان، كان يراني كما يرى النّاس أبا ذرّ الغفاري- الذي سمعت بتول تقرأ عنه- من جهة الجوع، كان ثائراً على الجوع، لكنّه في الحقيقة أراد الثّورة على كلّ قهر وألم، وفقر، وظلم، كان جوعه للكرامة وللحرية وللعدل، كما كانت تفهم أمي بتول وليس للخبز.

وأنا كنت مثله، رضوان يراني ابنه، فأنا مصدر بقاء متنامٍ، سيحمل اسمه، ويمضي بي وبه من دون أن يعلم أني لست بذرته، بل أنا ابن المحبّة غير المشروعة على أي وجه من الوجوه.

لذلك كنت ضمن شروطي الإنسانيّة مشروعاً، مشروعاً بكلّ طلاقة.

لكنّني أتخوّف من رضوخ بتول، ومن كبتها لعواطفها، أعلم أنّها ستنتقم من روحها، لأنّها كذبت، وخانت، وأوغلت في خطيئتها فيما

بعد، وهي لا تعلم كيف تكافح الخطيئة بالتّوبة - إن صحّت تسميتي خطيئة – وأكاد أجزم أنها ستكون بحجم المسؤولية عندما يهطل الندم وتلعلع الاعترافات.

أتنهد، إنّني الجنين الوحيد الذي يتنهد لأوّل مرة على سطح الأرض، التي لم يطأها بعد، لا أعرف كيف جعلني الله في هذا المكان، كشاهد محايد، لا لوم عليه، ولا تثريب.

إشارات العتمة (١٤)

رأيت «سميح» يقلّب صفحات دفتره، قرع متواصل على الباب، تدخل جوريّة، تخبره أن اثنين من الضباط ينتظرانه في المضافة، نساعده أنا وإياها لينتقل إلى كرسيه ذي العجلات، يتحرك ببطء مغادراً الغرفة، فأنفرد بدفتره الفضيحة وهو كالعادة يتركه على الطاولة إلى جوار سريره.

في أعلى الصفحة شطب وتحريف وكلمات بالعامية مكتوبة بقلم الرصاص، سارعتُ إلى قراءتها:

«حاولت أن أهتدي إلى عنوان مناسب لما سأكتبه، كتبتُ سارق الخبز تذكرتُ «معتصم»، لقد لقبته بسارق المطر، يستحق ذلك وبجدارة فقد سلب ديمة مني ثمّ تركها هذا الوغد للقلق ينهب روحها.

شطبتُ العبارة، ثم أعدتُ كتابتها ضاحكاً (سارق الخبز): (وقّفت عليي، كلّهم يسرحون ويمرحون، على كيفهم)

.... بعد خروجي من الثكنة، عندما كنت بساقين، ملاحظة: هنا أتوقّف قليلاً عن الكتابة، أنظر لساقي السليمة، ثم أنظر للأخرى، لأتأكد أنّني أمتلك كلّ تاريخ خرابي من جديد، نحن بحاجة دائماً إلى قواميس ألم عالية المصداقيّة والدّقة...

نعم، بعد خروجي من الثكنة لأستلم المؤن، كان أبو رعد ينتظرني بفارغ الصبر وبالغ الطمع، وكنت هناك لأسلمه إياها وفق الموعد المتفق عليه مسبقاً وبستمئة ألف ليرة، يحضر معه عاملين ينقلان الحمولة من الأطعمة والمعلبات والخبز والرز والبرغل والبطاطا المخصّصة للعساكر والمجندين من سيارة الزّيل العسكرية - التي خاضت حرب تشرين بشرف لا يعرفه أمثالي، وتخوض الآن حرب

الإرهاب باختراقات مناسبة لواقع الحال - إلى سيارته التويوتا، وأنا أنتظر من دون أدنى خوفٍ أو توجّسٍ فقد اعتدتُ سرقة مثل هذه المؤن واعتدتُ بيعها.

ربما لم تكن مفارقة وجود هذه السّيارة الروسيّة المُعمّرة على أرض بلادي فنحن الآن بحاجة إلى من يحمينا.

ينقدني المبلغ فأعدّه كتاجر حصيف، وأبتسم كضابطٍ نذل، ثم أضحك ضحكة ماكرة، (يبوس) شاربي، ويدسّ خمسة وعشرين ألف ليرة في جيبي بمثابة إكرامية لي، كي أتمادى في نهبي لقوت هؤلاء العساكر المساكين.

أخفي إضافة إلى الخمسة والعشرين ألفاً في جيب سيارتي مئة ألف، وأتوجّه بالخمسمئة ألف المتبقية للمقدم عايد، يبارك انتمائي إلى جوع هؤلاء الجنود وبؤسهم وتلاشي أجسادهم برداً وجوعاً وموتاً، يسرّه نكراني التّام للمعركة الدائرة. ينقدني- أنا اللص الصغير- عايد اللصّ الكبير بدوره خمسين ألفاً، ويعطيني إذناً بالانصراف لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، ماطّاً حنكه بلهجته السّاحلية تلك: (روحْ أبَقَى بدي شوفك هون ولك..)

...

أعود لأشرف على توزيع العشاء، ولتجهيز حقيبتي الصّغيرة للمغادرة، تبدأ ديباجتي في الأوامر نفسها، وأنا أوزع حبّة بطاطا واحدة ورغيف خبز وحيد لكلّ عسكريّ.

أشعر بمغصٍ حاد في معدتي، بوادر صحوة ضميريّة، أبحلق أكثر في كلّ ما ينتظرني فيما لو كنت شريفاً في الحرب، أهزّ رأسي ماذا ينتظر الشرفاء في الحروب سوى الموت. أشيح بعيني عن غبار يكسو وجوههم، وهزال شديد، أتمتم: (بيشبعوا، ولا بكيفهم ما يشبعوا)

لم أكن في الحقيقة أشعر بصفاقتي، كنت أتجاهلها قدر المستطاع، وأمارسها كما لو أنّني مجبر على ذلك، والحقيقة السّافرة والسّافلة

أنّني كنتُ مجبراً، مثلما الحقيقة أنني لست سوى ابنٍ عاقّ لكلّ مستويات الكرامة التي علّمني إياها أبي، والحقيقة أنّني لست كاتباً لأعطي كلّ مشهد أكتبه حقّه من الإشباع، لكنّي وإمعاناً في ذكر الحقيقة، كان عايد سيقتلني في نفس اللّجاة التي قتلتُ فيها، محسناً، وعلياً وزكريا وعبد الواحد، لو أنّني رفضت ذلك، وأصررتُ على نصاعة ضميري وصدق كرامتي.

اشتغلتُ على فكري وروحي معاً كي أحافظ على ذاتي من دون انهيار لأطول وقت ممكن، صرتُ أقول: تجارة العبيد أقدم تجارة في التاريخ، التجارة باللقمة والبشر تجارتان رائجتان منذ انبلاج هذا الكون الفاسد.

إنّني ابن الجوع، كنت أتوجه بالمبالغ التي أتحصّل عليها، إلى مدينتي، وبيتي تحديداً، ألفّها جيداً، بأكياس بلاستيكية، وأدسّها في جوف فراش من الصّوف، كنت أنام عليه في غرفتي.

أرفع عقيرة الراديو إلى جواري:

والذكريات صدى السنين الحاكي... يا جارة الوادي..

تعادل التجارة بالجسد والروح هذه المرابح المفروضة عليّ فرضاً. أكمل تسويغ سرقاتي.

قلبي تمرّس بالخوف وهو فتي، وليس باللّذات.

يا جارة الوادي....

أضحكُ (لملعنة) أحمد شوقي، أبدع في تحويل زحلة إلى طقس عشقيّ مقدسٍ، استحضر فاتنته وطوى خصرها متى شاء، ثمّ جاء هذا الاعتراف الجريء، الصافي، السّاحر لقلب متمّرس في اللّذة...

قبل الضوء (١٣)

وصلت ديمة إلى مرحلة الاستسلام تجاه قدر لا يُقاوم، كان اليأس يفترشها من أسفل قلبها إلى قمّة روحها.

الانتظار الطويل المحفوف بالقلق من ألعاب الموت المشوّقة والخالدة في منطقتنا، تتقنها كل الفئات، ونحمل لغز قبولنا لها على سماجتها في باطننا من دون أن نتذمّر، بل نذلّل لها الدروب، ونقبلها كقدرٍ أسطوريّ.

أسمع أمي تقول:

- يكفي ما حمّلتِه لنفسك! ادرسي، لو كان معتصم هنا لن يقبل أن تهملي دراستك. ادرسي، وكلّ ما يأتي من الله ما أحلاه! تصمت قليلاً ثم تضيف: «اللي مش بأيدك بكيدك، وكلي الله، واستهدي بالرحمن يا بنت».

- أيّة دراسة، لا أعرف عنه شيئاً منذ أيام طويلة يا بتول! يا رب، أرجو أن يكون بخير.

خافت أمي أن تخبرها حقيقة تخلّي معتصم عنها، وكانت حريصة كي لا تذكر سيرة عمي سميح والرسائل التي يرسلها له معتصم الخائن. لا تريد أن ترتكب حماقة فضح سرّ فيسخر لها الله من يفضح سرّها لاحقاً.

ديمة الحزينة صوتها ينخرُ فيّ، امرأة على سنّ رمح الحزن، على حواف نهنهتها أقف حافياً، وكأن الحيلة تتحاشاني فلا أعرف ماذا يفعل البشر ليخففوا من سطوة هذا الوحش الطائش؛ الحزن.

أشعر أنّني أريد أن أُسكتَ أمي، فلا يحقّ لها مساءلتها.

أحبّ ديمة بصبر، ولهفة، ألتحم مع بلوى شوقها المتعطش لذلك الوغد معتصم، الذي لا يتصل، ولا يطمئن قلبها الرّقيق.

بالنسبة لي سواء أولئك الذين عذّبوا عبدو زوج انتصار ومن حبسوا ابن «أبو فهد» ومعتصمها هذا، كلهم رصاصات خرقاء تشوه بالعتمة الحياة التي أترقّبها وأسعى لأعيشها.

- تعالي غداً معنا إلى المطار، كي تروحي عن نفسك، وتغيّري من جوّ التوتر هذا.

فهمتُ أنّها لا تريد أن تظلم «معتصم» البعيد، وهي لا تعرف سبباً وجيهاً لغيابه بعد.

(معقول ما عاد بدو البلد وما فيها؟!! ما بدي أظلمه، شوما صار لازم يخبرني)

- الظلم من شيم حياتنا يا ديمة. تقول أمي وتهزّ رأسها آسفةً.

- أين هو؟ لم توقف عن الكتابة لي؟!

- الغائب حُجّته معه، تفاءلي بالخير.

أمي تفتقد حِرفيّة الإقناع، وهي مقتنعة تماماً بالشيء، فكيف الآن وهي كاشفة لكذب معتصم؟! لكنّها أي أمي شاهقة في العزف على وتر الواقع والمنطق الجارحين.

ينتابني الفرح، فأمّي تكبر، ولم تعد بلهاء ورومانسية كما كانت منذ زمن قصير بل صارت تقف للوجع في لبّ عينه وتردّ بصوت عالٍ:

- لا تعاندي، هذه منافٍ يا ديمة، رحلة موت لن تقدم سوى الشّقاء والقهر، لن تكون يد أوروبا أكثر بياضاً من يد جبلنا، ولن ينغرس فيها معتصمكِ كما كان ينغرس هنا في تربة بلادنا. هذا الرّحيل ظاهرة تكاد تكون مشروعة لننقذ ما تبقى منّا، وليست ترفاً زائداً، أرجو ألا يكررها

التاريخ، ثم افترضي أنه لم يعد يريد هذه العلاقة التي تربطكما، ماذا ستفعلين؟ أتقتلين نفسك؟ لو كنت مكانك قلت: الله معك والقلب داعي لك.

تقبل ديمة مرافقتنا إلى المطار، أحبّ نصفها المهادن الصّابر، أكثر من نصفها العاشق القلق. أحبّ طريقة أمي في كيّ الجراح.

نمرّ أثناء عودتنا من بيت ديمة إلى شقّتنا بساحة يسمونها (المشنقة)، سمعتُ باسمها من ديمة الجالسة إلى جوار أمي في السّيارة، تستغرب، ويعلو صوتها لكثرة تجمهر النّاس هناك:

- ماذا يحدث، لا تقتربي أكثر يا بتول؛ قالت ديمة.

سمعتُ ضربات قلب أمي، ضربات خوف متلاحقة، صاخبة، كانت باللاشعور تضع يدها عليّ، تحمي بطنها. كنتُ على حداثة تكويني أستشعر دبيب المصائب. أليس في وسع عمري الجنيني أن يبارك بعضي بقليل من الفرح!؟

تهيأتْ أمي للتراجع، فكلّ حركة في هذه البلاد المسكونة بالحرب، والقتل، والخطف محسوبة على صاحبها، وأمي ليس لها أن تغامر في ساحةٍ اسمها ساحة المشنقة ومع جنين تقاتل لتحفظ سلامته.

تعلّق بصرها بشاب في أعلى المشنقة، شاب أسمر، يحمل رأساً مقطوعاً مدمّى، يلوّح به أمام أناس أخرجوا هواتفهم المحمولة للتصوير، والبعض بدأ يصرخ: (الله حيهم بني معروف.).

(بني معروف) قومي الذين أنتمي إليهم، وأحمل جيناتهم، سأقرأ في دفاتر بتول فيما بعد قصص بطولاتهم وسأتيقن يقين العارف أنهم كانوا يموتون لأنهم جديرون بالبقاء، وبأنهم يعيشون لأنهم يفنون لأجل الآخر والآخرة النقية، وبأنهم لا يداس لهم على طرف ولا ينامون على ضيم.

كان الوقت حاداً كشفرة، صُعقتْ أمي، فالشاب الذي يتسلّق حاملاً الرّأس المقطوعة التي ينقّط منها الدّم كان خالي أكرم، يطلّ بوجه يلمع عرقاً في عيني أمي، وجه مشبع بالنصر والشراسة والبلادة.

أشاحتْ أمي وجهها عنه، لم أعد أرى شيئاً، كان موتاً يفرّخ من ذاته ويعيش لذاته.

مات الكلام في حنجرتها، سكون مخيف، تراجعت إلى الوراء، غامت روحي بدموع البتول ورجفتها، في مستقري المظلم (جواتها)، كنت أسمعها تتنفس بصعوبة، أسمعها ولا أرى شيئاً، وأصرخ من دون صوت، اللهم أغمض لي قلبي! اللهم خفّف الألم على قلب أمي!

أسمع صوتاً يخاطب خالي أكرم: أين أخوك يا أكرم؟ ماذا فعلت به؟

أجوب الرّحم فلا أرى أحداً يقطن معي في هذا الظلام الرّحيم، أعود للبحث مجدداً، لا أرى شيئاً لكن أسمع صوت خالي أكرم متبرئاً من فعلته: (لا أعلم، اسألْ أولئك الذين اجتثوا رأس سالم يا الله).

يتردّد الصّوت كالنفخ في البوق أعلى وأضخم: قتلتَ ذاتك في أخيك يا أكرم، ستظل روح سالم تذكرك بربك الذي خذلته من كلّ أنحاء الأرض، من قتل ليس منّا..

إذاً، أنا من الأرض، ابن هذا اليباس، من هذا الكوكب الذي فتح جوفه ليقبل دم هابيل من يد خالي أكرم من دون أن يرفّ غصن أو تتعكر ساقية ماء، كان رأس هابيل يشبه رأس سالم، الذي قُطع في أنحاء أخرى من ذات الأرض...

إشارات العتمة (١٥)

كانوا يكبّرون لصلاة أبدية، أسمعها عبر «الشات» وفخر يلزم مكتبه في ناطحة السحاب تلك، في أوقات الصلاة.

استلم أربع رسائل من رائدة، صديقته، التي كانت المرأة رقم واحد في التنظيم للخروج للمظاهرات الخجولة في المحافظات الجنوبية.

كان دائماً يحدّثني عن سير الأحداث وتنقّلات رائدة، وحثّها للمغتربين في كلّ دول الخليج لجمع تبرعات للناس المنكوبة ولأشياء أخرى غير واضحة الملامح، وكنتُ أهزّ برأسي مستمعة، لمحض كلامٍ وأفعالٍ ينقصها التنظيم والصدق والكثير من الإرادة لتصير ردّة فعلٍ وفكرة يعوّل عليها، لكنّه هو (فخر) رفض كلّ وسيلة قد تستخدم ساطوراً ضد رقاب بريئة، فلم يشاركهم وأدرك تماماً أنهم مقبلون على بحر من الدّماء.

حافظ على خطّ الرجعة كما كان يؤكد لي دائماً، ليس استسلاماً بل عدم تفريط ببلاده الوحيدة، فلم تُسجّل ضدّه أيّة تصريحات أو مقالات أو نشاطات من شأنها أن تمنع دخوله إلى أمه وأرض زيتونه وشبابه، ولم يكن له ملفٌّ يُحاسب عليه، باستثناء بعض القصائد الثائرة التي ليس من شأنها أيضاً أن تقضّ مضجع مسؤولٍ، أو تؤرق جهاز أمن في زمن البارود والسلاح والموت، وليس الكلمة.

أما رائدة تلك فقد تنقّلت على مدار أربعة أعوام من محافظة لأخرى، من الجنوب إلى الوسط فالشمال، ثم إلى تركيا، حيث بدأت اجتماعاتها المنظمة مع وفود المعارضة، في مشاهد استعراضية لن تشبع جائعاً ولن تعيد كرامة، الرسائل التي وصلته منها الآن تخبره فيها أنّ

التمرّد مات، وأنّها صارت مع طفليها في النرويج، بعد أن أقلعت عما كانت عازمة عليه، فلا أمل في عبدٍ يستمرئ عبوديته.

منذ أول شعار رُفع يوم الجمعة، (واحد واحد واحد، الشّعب السوريّ واحد)، تأكدت بعد مرور مئات الجُمع، وتنقلها من مكان إلى آخر، ومن اجتماع إلى آخر، أنّ الشّعب السّوريّ ليس واحداً، ولن يكون في ظلّ من يريد له القسمة والتناحر.

أما هو فخر فكان قلبه دليله، بشأن الثورة التي اندلعت في الجنوب، ومنذ وقوع أوّل ضحية أقلع عن تناول اللّحم، انتهره وليد رفيقه في المكتب:

- من لا يأكل اللّحم لا يحيا، أنت ميت.. لأنّك كذلك..

- أنا ميت منذ زمن..

بدأ يشرح لوليد رحلة موته ذلاً وفقراً، مذ كان طفلاً يضجّ مثل الجنيّ في حارات البلدة القديمة في حمص، حيث كان والده متطوعاً، ويمارس حراسته للسجن الصحراوي في تدمر، وكيف انتقل من مكان إلى مكان تحت جناح هذا الحارس، لينفض عن روحه وجع ما رآه، وكيف وقف (فخر البائس) ميتاً عند باب أهل زوجته، وهو يتقدم لخطبتها، ولا يملك إلا حبّها له.

لم يملّ من معاشرة النّاس، لم يكن يشعر بالعجز، بل مع كلّ رحلة وتنقّل بين المحافظات رفقة أهله كان يشعر بفتح جديد، حتى هنا في الفجيرة نما نزوعه وانخراطه التام نحو العمل المؤسساتي واحترام المواعيد، تفشّت نزعته الاستهلاكية الواسمة لنمط الحياة كالمواطنين والمقيمين جميعاً، وبدأ المال يسيطر كعامل تقييم وفرز طبقي ومجتمعي، كعادته منذ الأزل، رغم أنّ معظم الذين يتمظهرون، ويمارسون الرفاهية في الفجيرة وباقي الإمارات العربية ودول الخليج

عموماً، وهم من أبناء محافظته، كانوا يلبسون بنطالاً واحداً على مدار أعوام، ومادة غذائهم الرئيسة هي البرغل.

يغمض عينيه، يترك القلم أمامه، يتنهّد، أراه جيداً ويراني، يدرك أنّ مقومات الرجل الشجاعة في الفعل والقول، وهو أعزل من كلّ شيء يخصّ الأفعال، ويمتشق دائماً هذا السّلاح، الكلمة.

استيقظتْ سعادته الخفية كالجنون منذ ثلاثة أعوام مضت، حيث اشترى بيتاً في أرقى أحياء المدينة، ولم يسكنه بعد، شحن أثاثه الفخم من هذه الصحراء الملهوجة بأموالها، أثاثاً غريباً بترفه وعصريّته، إذ لا يتوافق مع بلاده وحلّتها الفقيرة، ورغم اكتمال بيته بفرشه وزينته وكل سبل الراحة فيه ظلّ ينزل ضيفاً عند أمّه في الرّيف الشرقي، في بيت العائلة، كلّما سافر لقضاء إجازته السّنويّة...

أمّه التي كانت مع زوجته كقطبي مغناطيس، متنافرين حدّ تنغيص عيشه.

ابتسم عندما قرأ رسائل استقرار رائدة في تلك البلاد الباردة البعيدة، تذكّرني، وكنتُ قد عرفتُ رائدة عن طريق المصادفة، حيث كان لي ابنة عمٍّ تقيم في نفس العمارة التي تسكن فيها رائدة، وكانتا جارتين؛ الباب بالباب، فدعتنا رائدة لشرب فنجان قهوة، وحدث أن غيرّت رائدة - الثّورجية - الحفّاض لرضيعها أمامنا، في الصالون، أحسستُ بقرف غريزي، وعدم لياقة تجاه تصرف رائدة ذاك، وزاد الطين بلّة أنّ رائدة حملت القماشة المبلولة ببول ابنها، ورمتها من الردهة، احتفظتُ بهذا المشهد وقلتُ لفخر:

(بشرفك، هذه المرأة التي ترمي حفّاض ابنها من البلكونة، تستحق أن تعيش أساساً لتشيل الثورة على أكتافها؟ إضافة إلى الأموال التي

جنتها، والتي يسّرت لها هجرتها إلى النرويج، ركبت موجة منفعتها الشخصية، وحطت الوطن وهمومه وكل شيء بالخرج.)

كان فخر يضحك، يضحك كثيراً، وترقص غمّازته لتعليقاتي الساخرة تلك، وأنا أصرّ على أنّ النظافة لا تُجزّأ.

هذا العجز الجميل أمام فلسفتي يحبّه، يضع يده على قلبه ليهدّأ من رشده عندما تضيء الشاشة معلنة قدوم رسالة جديدة مني، بعد زمن طويل من الغياب، يومان مدة كافية لتسبب له فقدان التوازن وليس القلق فحسب.

كان عشقه على الشّاشة، ولا يقيم بين يديه، فتح الرسالة:

(رضوان وصل، نحن بخير يا ضو القلب، والبيبي رائع)..

أرفقتُ مع الرسالة صورة لبطني المكوّرة، شعر بأنّه لا يملك صبراً، فهو بالضرورة لا يملك قوة، هنا شيء ما في داخله يحترق فرحاً، يحاول أن يطفئه بموال..

كبّر الصورة، مدّ يده ليلمس هذه الشاشة الباردة، هنا روحه، هنا في بطني يسكن سرّه العظيم.

في قمة ترنّحه وتجلّيه، كان قلبه يزوّده بالصّحو دائماً، سارع إلى سؤالي:

- متى موعد الولادة؟ أخبريني بسرعة، واذهبي.

- الثلث الأخير من تموز إن شاء الله.

هذه البطن المستديرة بين حياتين، بين الوجود والوجود المُقنّع غير المصرح به، بين الحياة وربما العدم لجنين سيؤرقه حوار الهويّة، وأزمة الانتماء إلى صلبه الحقيقي، بين الصحراء التي أغدقت عليه وأغرقته في غربته وترفها والجبل الذي قسا عليه وتجبّر في حرمانه.

بطني تنطق بألف لغة ولغة كما كان يقول لي...

وقف حاملاً هاتفه وأطلّ من نافذته على شقاء صحراويّ واسع الخلاء والخواء والنار والمال..

منذ أكثر من عشرين عاماً كان يهجر الصحراء على نحو دوري في الصيف، ليزور أمه، ويخزّن ضوء بلاده وهواءها لمدة شهرين متواصلين، فتصير راحته وسكينته بين يديه، يحملهما على هيئة استشفاء تحت جناحيه، ويعود بهما إلى الصحراء مجدّداً. ولكن منذ أن اندلعت الحرب امتنع عن ممارسة هذه العادة المترعة بالفرح، وصار يذهب إجازته مرة واحدة كلّ عام ليمضي أسبوعاً واحداً فقط إلى جوار أمه، ويعود حاملاً تمائم مختلفة من مزارات الجبل المتنوعة ليُشفى سعد الصغير من متلازمة نقائه ولعابه، رغم يقينه أن لا شفاء من هذا المرض.

عاد وليد ليقطع رحلاته السّوطية عبر ذاكرة مزدحمة.

يحمل الآيس كريم بصورة مغرية، محفّزة للذاكرة، رتّب العلب، صفّها بصورة أنيقة على الصينية، وصار يدور على أطراف المكتب بحركات استعراضية، وكأنّه بائع البوظة، بدأ يجلجل صوت فخر في ذاكرته:

- جرابات، تاع خود يا بو العيال...

تلك الحركات الاستعراضية، إحيائية لصوته الذي زعق كثيراً مع بسطته المحمولة وأكياسه السوداء في الكراجات، كراجات تدمر، وهو يبيع الجوارب، ويلبس (خفّافة مدروزة) تمت خياطتها مرات ومرات ومن دون جورب يرّد برد الشتاء وألم اللهيب صيفاً، فبائع الجوارب لا يرتديها بل يوفّر ثمن جورب فهو ليس كطبّاخ السّمّ أبداً.

قبل الضوء (١٤)

خالي أكرم سبّب بكاء مفجعاً لأمّي، ظلّتْ تنشج حتى ساعة متأخرة من الليل على ركبة رضوان، وهي تخبره أنّ أكرم قد مات بالنسبة لها، مات منذ رأته يحمل تلك الرأس المقطوعة بشعرها المغبر ودمها الراشح، ويصعد بها في ساحة المشنقة أمام الناس، المشنقة التي كانت تقول أمي إنها لإعدام المجرمين والقتلة وليست لاستعراضات القتل وتشويه الإنسانية، وقطعت وعداً ثم حلفت بي؛ إنّها لن تكلمه بعد اليوم.

شعرتُ أنّ عظامي قد صارت ثقيلة، وأنّ جسمي غريب، يتضخم ويكبر، كان بدني جائعاً على الدوام، يريد أن يأكل أكثر ويشرب أكثر، وأمي لا تتوقف عن الحزن، بل وتمتنع عن الطعام لفترات.

أسمع صوت رضوان، بدأت أسمعه منذ ثلاثة أيام، كنتُ نائماً عندما عاد إلى البلاد هذه المرة، كان صوته مرتفعاً ناشزاً، هو الصوت الذي لا أحبّه ولا أتقبّله، شعرت أنّه يمزّق رأسي:

- اتركيه يهرب من سجن سالم، هذا حبس، حبس يا بتول، لا نخرج منه إلا جنائز، نودّع أرواحنا، دعيه يحرر رأس سالم برأس جديدة. وماذا يضرّ في الانتقام، إنه في حالة أكرم يحلّ الحقّ.

كانت لغة رضوان تعجّ بالدّماء، لم تكن لغة كانت خناجر مسنونة، ورصاصات شيطانية وكان مكاني (جوّات) بتول هو المكان الوحيد الآمن الذي يحميني منه.

ربما لا يمتلك رضوان سوى شريعة حمورابي، التي صرخت أمي بها مرة في وجهه، لا أعرف عنها شيئاً، لكنّني أدرك في داخلي أنّها بمنتهى البرودة والبشاعة، فأمي بتول ترفضها وتكرهها. سمعتها كثيراً تردد؛ لا

يُردّ على الموت بالموت ولا على الإساءة بمثلها، العين بالعين والسّنّ بالسّنّ قانون الضعفاء الذي يجعلك مغلولاً إلى حقدك وانتقامك، فقط التسامح هو الطريق الوحيد الذي يجعلك حرّاً، بدايته واسعة ونهايته لا يحدّها المدى.

من أين تأتي أمي بهذه الفلسفة الأنيقة؟ لقد لحست الكتب عقلها، كلما قرأت أكثر كلما تنازلت عن عوامل قوتها أكثر وبمزيد من الطواعية- إن لم نقل الاستسلام- وبمزيد من المحبة تغزل عالماً يستعصي عليّ - وأنا الجنين- تقبّله وهو بهذه النصاعة.

مضى على وجودي (جوات) أمي بتول أياماً طويلة، كنتُ أتذوّق النور في عتمتها، وأكبر محاولاً ألا أفكّر في غدٍ ألغي فيه أحداً، أو غدٍ أرحل فيه، وأترك وجع غيابي فيه لآخرين.

أريد أن أكون إنساناً صافياً لا يحمل سكاكين مسنونة وحادة تؤلم المطعون والطاعن، إنسان يملؤه البياض الشاسع الذي تخطط له أمي في كل لحظة ويفيض بي وأنا في أحشائها، أمي ترمّم ما تهدم من الإنسانية بمحبتها وتسامحها رغم أنّ الدنيا كانت تبالغ في إيذائنا.

بدأتُ أتمطّى داخلها، وهي كانت حريصة على عدم تدجيني ولو بلباس ضيّق، فأشعر بهفهفة ثيابها الواسعة، وعطرها الخفيف، وصوتها الوديع، في حين تحيط بي هذه التوليفة من الخوف الذي يسبّبه وجود رضوان، وفلسفته الدّمويّة المُقلقة طوال الأيام الماضية، أهرب إلى النوم أكثر فأكثر، ثم أستفيق على ذهول، فقد كنتُ أجد في كلّ مرّة لحماً طازجاً ينمو لي في مناطق مختلفة من جسدي، لحماً يجعلني بكساءٍ جميلٍ ويزيّن لي ذاتي التي ستخرج إلى الكون، وتمتد لي أطرافٌ، وتمتد معها سعادة حذرة.

رضوان كان لحوحاً في تأمين كلّ ما يحتاجه البيت لفترة غيابه القادمة التي لا تتعدى مئة يوم. أحضر ما يلزم البيت من طعام

وأغراض، حتى الخبز سمعتُ أمي تعاتبه إذا كدّسه لها في الثلاجة وبكميات كبيرة، وهي كانت تقول هناك من يحتاجه أكثر منا، الخبز ليس للاحتكار يا رضوان!!

مشى بنا صباحاً، صحبني مع أمي إلى بيت ممدوح جدّي، في محاولة ذبيحة وأخيرة لتتكلم أمي مع خالي أكرم، فقد قاطعته قرابة شهور كثيرة، وجدي وأبي يريدانها أن تكلمه قبل أن يغادر البلاد في ذات الوقت مع رضوان، فخالي أكرم سيسافر تهريباً عبر الجبل إلى لبنان، ومن لبنان سيرتّل أغنية الهجرة ذاتها التي اقترفها معتصم الغادر وأدمى بها قلب ديمة. أما رضوان فسيعود من لبنان إلى صحرائه، بعد أن تعطلت حركة المطار كما كان يخبر أمي..

سمعتُ صوت جدّي ممدوح، كان يتهدّج على رجاء:

- أعطيكِ ماء عيني يا بتول، لكن لا تقاطعيه، هذا أخوك، أكرم ليس مجرماً يا بتول، وأنت تعرفين ذلك جيداً، يدي هذه ربّته وربّتك على الخير، غداً الله سيهديه، ويتوب ويعود إلى عقله.

وكانت جدّتي أمّ أكرم تحاول أن تستحلفها بي، فتقترب منّا وأشمّ رائحتها الزيتونيّة الخالدة فأصير أكثر رغبة في الخروج إليها لأراها بأمّ عيني وأجلس في حجرها، لكن أمي تصرخ وتقطع خيالاتي وأمنياتي التي صارت تلحّ أكثر منذ بزغ لي لحم يغطيني، أسمع صوتها حاداً لا يشبه ما عودتني إياه حنجرتها في كل أيامي الماضية وكأنها تؤهلني لفطام قاسٍ:

- ماذا تركنا لغد يا أبي، هكذا انكشفنا، الذي يقتل إنساناً تنكشف عورته كلّ العمر.

يداري جدي عينيه بزاوية كوفيّته، يخفي دمعهما الذي يسيل مع وجع بتول ووجعه وصدمته القاهرة بولده الذي تحوّل إلى قاتلٍ.

تنحنح رضوان، وعبر إلى غرفة أكرم ربما، لا أعرف أين ذهب، لكني شعرت به يبتعد، طالما شعرتُ بخفّة الهواء من حولي وعذوبته عندما يبتعد رضوان، ما أثقل حضورك يا رضوان!

عاد مع خالي، شعرتُ بظلّه، كان لزاماً عليّ أن أعرفه حتى من ظلّه فهو أي خالي مثلي الأعلى وسأصير إليه عندما أخرج من بطن بتول وأكبر، كان واقفاً أمام أمي أو هكذا حدستُ:

- (كيف حالكِ؟)، قال لأمي، أكرم - الذي أحلم أن أصير بمثل رجولته وشجاعته وسمرته وبارودته-

- (ولك يا ويلك من الله، يا ويلك من الله)، بدأت تمارس أمي عذلها مثل نصلٍ ناعمٍ، نصلٍ ذابحٍ، يصل لآخر روح خالي أكرم ويهزّها هزّ اليقظة والعودة إلى سرب اليمام المسالم، وقلبي يكاد يقرأ اندثار الزّعل (جوّاتها)، وبدأ يشمّ رائحة أمان، يضمّها خالي، أشعر بذراعيه، أسمع شروعه في بكاء صامت.

لن أبكي مثله، وربما أعدتُ النظر في هذا المثل الأعلى للرجولة الذي اخترته، والذي كان يبكي مثل طفلة اعتدال، ولا يسبّ كما يسبّ أبو فهد.

أمي قادرة على أن تصوّب كلّ الدنيا حولها نحو سلام لذيذ. أسمع صوته أخيراً:

- ربما شاركت في عمادة دم يا بتول، ليرجع هذا البلد نظيفاً، سامحيني، وأنتِ يا أمّي سامحيني، رضعت من صدرك وخنت نقاءه.

كنتُ آمناً، آمناً، في هذا النحيب النادم، الذي يغسل أدران القلوب، بعيداً عن شريعة حمورابي الدّموية التي يؤمن بها رضوان.

سارق المطر (٣)

الليل في ألمانيا هو الأشدّ ظلمة والأكثر أخذاً للروح في كلّ بقاع الأرض، ولولا سوسو - هذا الملاك البريء- لكان العالم قفراً.

بدأ سارق المطر يستعيد عافيته، أحضر له أحد المشرفين على (الكامب) هاتفاً محمولاً ليتواصل مع ذويه، بعد غياب لأيام، وتقرّحات عظيمة أصابت قدميه، ونزيف حادّ من بواسير متقدمة، حرثت مؤخرته، وهو يجتاز الدّول الثّماني وصولاً إلى ألمانيا.

ينظر إلى ياسمين، الاسم الذي اختاره لها، والأكثر صحّة سوسو، التي صارت ابنته في الغربة والوجع والعذاب، يعرف أنّ هذه الفتاة مُسلمة، أو هكذا يخمّن، فأمّها التي سرقتها مياه اليونان الإغريقية أخذتها مع حجابها الأسود، وثوبها الطويل السّاتر لكامل جسد ريان، يعلم جيداً أنّه مهما كان المكان الذي هما فيه، سيعبدان الإله نفسه، بعيداً عن كلّ التعاليم والفرائض والبروتوكولات المشروطة لطائفة أو دين.

يمشّط شعرها بأصابعه النحيلة، يهيئ ذاته للذهاب إلى الدرس الأوّل في اللغة الألمانية، يمرّ بها إلى جارتهم الحمويّة في الطابق الثّاني، لتبقى تحت رعايتها حتى عودته.

هذه البلاد لا تحب التّأخر في المواعيد، ولا تحب الكذب، على خلاف البلاد عندنا، هكذا يفكر، رغم دخوله إليها بكذبة كبيرة، مصطحباً ملاكاً ومدعياً أنه أبوها.

يترك رسائل ومقاطع صوتية يُطمئن من خلالها الجميع، أهله وأصدقاءه.

كان قلبه حائراً، تلبسه الحيرة عندما دخل الكنيسة النّمساوية، في آخر رحلته عبر المعبر الأوروبي، وقبل دخول ألمانيا، كانت الصغيرة وقتئذٍ تمسك بيده، للمكان رهبة تفوق الوصف، هناك لأول مرة ركع بعد أن ذاق طعم الموت مراراً حيث أكدت الأرقام في الكنيسة أنّه نجا مع سوسو، وتأكد أنهما سوف يبدأن الحكاية، هناك ركع في زاوية مضاءة بالشموع، وبكى بأعلى صوته، واحتضن سوسو التي صارت تبكي معه وكأنهما يتطهران من إثم ترك البلاد العظيم.

يتذكّر ذلك الطعام الذي أكله، والقطارات المجانية التي اندسّ فيها مع مئات المهاجرين باتجاه ألمانيا ودول الاتحاد الأوربي، تذكّر أنّ أحد الألمان في السبعين من عمره كان يحمل هاتفاً محمولاً مع شبكة إنترنت مفتوحة، يقدّمه مع العصائر للاجئين، علم أنّه يستطيع أن يخبر الجميع بنجاته، لكنّها الحيرة ذاتها التي قطنت قلبه، وجعلته حتى اللحظة عازماً على إخفاء حقيقة ياسمين، على الأقل في الوقت الحالي.

على الطريق كان مستمتعاً بكونه أباً، ولكن في ظروف إنسانيّة مواربة، يمارس عطفه على الصغيرة كضربٍ من الكرامة التي تربى عليها، لكنّه سيكون صريحاً كالشّمس عندما يحين الوقت لإخبارهم، وسيكون دافئاً مثل الأرض - في بلاده - في احتضانه لهذه اليتيمة.

يردّد في ذاته القول نفسه في كلّ مرة؛ (ما استحقّ أن يُولد من عاش لنفسه فقط).

سلّم عليه أحد شبان إدلب، كان معه في (الكورس الألماني)، هذا الشاب أجبرت شرطة إسطنبول ذويه على توقيع وثائق عودة طوعيّة، لم يستطيعوا قراءتها، ولا معرفة مضمونها، ولم يفهموا محتواها، وهو لحسن حظه – وبالمصادفة - كان في أطراف

المعسكر، ومن هناك غافل (الجاندرما) وتمكّن من مغادرة المخيم ومن ثم الإبحار مع مُهرّب شاميّ.

عندما يرى هذه الأعداد المتزايدة للاجئين منذ بداية ما سموها الثورة، يعلم أنّ هذه الهجرات، وبهذه الملايين المخيفة، لم يشهدها التاريخ من قبل، ويدرك تماماً أنّها آلة الحرب، دون معرفة متى ستأتي نهايتها، وأنّ هذه الثورة التي شردت أهل البلد ثورة مأفونة، خائبة، وأنّه في زمن الحروب لا مطلق ولا يقين يقي الإنسان من شرّ أخيه الإنسان.

قبل الضوء (١٥)

يكثر الموت في هذا البلد الذي تسكنه بتول، ليتني كنت في بطن امرأة أخرى، في مكان أكثر سلاماً وفرحاً.

أسمعهم يتحدثون عنه - عن الموت - في كلّ مكان؛ في المدرسة، في سيارة بتول، في دار جدّي ممدوح، مع فخر، مع رضوان، مع سميح بساقه الواحدة، مع ديمة التي كفّت عن البكاء منذ وقت قريب فقط، ومع انتصار رفيقة أمي.

أنا بدوري لا أعرف إن كان تواطؤاً ما أمارسه (جوّات) أمي بتول، كانوا في الخارج غارقين بكلّ عوامل الفناء من موت وخطف وقلق وتدمير وتفجير، وكنتُ غارقاً بزغبٍ جميل، بدأ يغطّي كتفي وظهري وصدغيّ، وأخذ شعرٌ ناعمٌ يشقّ مشروعية نمائه في رأسي.

استفاقت أمي على هلع، وفوضى، وأصوات صراخ، واستغاثة قادمة من سوق الخضار، أزاحت السّتارة عن شباك الغرفة الصّغيرة المعدّة للبيبي، فلم ترَ منها أيّ طفولة أطلّ عليها من نافذتي لوجه هذا البلد، كان الموت يهيل أكواماً من لحم ممزق ودماء طاغية تملأ المكان مع صيحات الصباح الأولى.

لمّا تزل أمي منذ انغرست (جوّاتها)، وبحركة لاشعورية تحتضنني، تحمي بطنها بكفيها وقد بدوت رجلاً صغيراً بطول يقارب ثلاثة وعشرين سنتيمتراً، ووزن لا يعادل وزن علبة التونة. وفق القياسات التي أخبرها الطبيب لأمي في آخر زيارة لنا.

رنين متواصل، متواصل، جدّتي وجدّي، خالي أكرم، ورضوان أبي، كلّهم يلحّون في الاطمئنان ويسألون أسئلة كثيرة، أمي تجيب إنّنا في البيت لا

تخافوا، جدّي يجد صعوبة في حماية أمي، فهي تقيم في المدينة بعيداً عن الرّيف الشّرقي المجاور للدواعش، كانت المدينة في نظرها أكثر أماناً، وهي لا تستطيع الاستقرار - في ظلّ غياب رضوان - معهم، لأنها مُدرّسة في إحدى مدارس المدينة، ثم إنّها مراراً قالت لجدّي لكي يأتي مع جدّتي للبقاء معها حتى تلدني؛ وافق جدّي على ذلك، ووعدها بالقدوم بعد لملمة الموسم.

إنّ الاستسلام لهذا القدر من المباغتة والفجائية غريب، يسربل أمي، ويسربلني (جواتها) في آن معاً.

جلست أمي على الكنبة التي يجلس عليها مثلي الأعلى من الرجال خالي أكرم، وأخذت تتصل بديمة، كان الهاتف المحمول لديمة يعطي رداً آلياً نزقاً بأنّه مغلق أو خارج نطاق التغطية، ثم يقول وبنيّة حسنة لكنها كانت مُستفزة بالنسبة لأمي؛ أرجو محاولة الاتصال في وقت لاحق. في الحقيقة صوت المجيب الآلي جعلني أشعر رغم وجودي الهامشيّ في بطن بتول أنّ ديمة خارج نطاق تغطية الحياة، وقد أُغلق عليها بموتٍ اجتاحها...

انكمشتُ أحاول النوم كي أتخلص من أفكاري السّوداوية هذه، وفي الوقت ذاته أحاول أن أفهم هذه المآزق التي تجلّلنا وتحوّلنا إلى مسوخٍ في بعض مفاصلها الدامية. وظلّ الرّد الآليّ يفترس أعصاب أمي، التي التاعتْ، وازدادتْ دوراناً في أرض الغرفة.

كنتُ لا أفقه شيئاً من هذه التفجيرات، سوى أنّ بعض البشر يقتل بعضهم الآخر. كانت الطريق الرّئيسة في المحافظة قد تحوّل تمددها المسالم إلى حفرة بركانية سوداء عميقة.

فخر في صحرائه يراقب هذه الضوضاء الدامية، يعلم علماً كاسحاً بقلقي، ويشعر بي (جوّات) أمي.

رنين جديد؛ «فخر، فخر، دخيلك يا فخر هذي البلد تموت، ونحنا قاعدين نتفرج.»

بدأ يمارس سطوة حضور صوته الآمن، من ذلك البُعد الصحراوي بأعلى درجات الرّقي، إنه لا يقول إلا نفسه، يحاول أن يُهدّئ من روع أمي، وهي تخبره أنّ هاتف ديمة المحمول خارج التغطية، ولا تردّ على اتصالاتها المتكررة، وأنّ الموت وافر، وبشكل غريب من نافذة غرفة البيبي التي أعدتها لي، والبيبي اسمي الحركي الوديع، قبل أن أعتنق اسماً يليق بالحياة الدنيا المتاخمة لسوق الخضار وللموت وللعويل.

صوت فخر، صوت رجل يليق بي أن يكون أول من ناصر وجودي من الرّجال، صوت رخيم رزين، صوت رجل اعتاد أن يقول الأشياء مرة واحدة، مشبع بالحكمة والتروي واللطف واللين، كم يعوضني عن خيبتي برضوان-الذي هو أبي المُعلن- وقسوته الجارفة وطبعه المسنون:

- اهدئي حبيبتي، لا تخرجي من البيت أبداً، حتى تهدأ الأوضاع، ويصير باستطاعة عمّي ممدوح أن يجيء لعندك، حاولي أن تسترخي، اشربي شيئاً، تمددي، البطل الحقيقيّ يا بتول من يحافظ على سلامة روحين معاً.

انقطع الاتصال، وأمي كانت متقطعة الأفكار، لا تفهم ما يقول لها فخر، كانت تفكر بديمة التي اعتادت الوقوف عند الإشارة الضوئية، على تقاطع الطرق وعند الفجوة التي تكالب عليها الموت، تقف هناك لتستقلّ الباص الذي يحملها إلى مركز عملها، فهي تُعلّم في قرية قريبة من المدينة.

شعرتُ بالكارثة تتسرب تحت زغبي الجميل، عندما أمعنت بتول في أفكارها، سمعتُ صوت ديمة العذب، الحبيب لقلبي، لعنت حظّي فقد ترافق كلّ امتلاك لي - ولشيء يخصّني كآدميّ - مع كارثة ما، شعرتُ بالخجل، كيف سأفرح بشعر رأسي وديمة غائبة عني؟!

ركلتُ أمي كي تبعدني عن شباك غرفتي، وتأخذني إلى مكانٍ طيّبٍ، فلم أعد أطيق اجترار الصور المأساويّة التي يتتابع توثيقها في ذاكرتينا معاً.

أحاول الإعلان عن نومي، هو الانتصار الوحيد الوهميّ، الذي ليس له قيمة، لكنّه سينجو بي من وجع الواقع القادم. أحتمي بالنوم، نعم وألوذ بنفسي كي لا أخزّن شيئاً من دموية الحكاية وجبروتها الأسود.

... لا أعرف كم لبثتُ في غفوتي التي صارت ملاذي، كان النوم مجرّد شغب يمارسه معي اللاشعور، ليصيّرني جنيناً قوياً يحتمل كلّ هذه المآسي، ولا أدري كيف يستطيع البيبي مثلي أن يتحمل كلّ هذا الطوفان من الحزن والخراب مستنداً إلى النوم فقط.

استيقظتُ لأنني لا أريد رغم أنانيتي، وهروبي، وضعفي أن أترك أمي تنزف حزنها وحدها أمام رصاصات الموت. سمعتُ امرأة تقول لأمي:

- عاشت شريفة وماتت شريفة، تصبّري، ليساعد الله أهلها.

أمّا أمي فقد شعرت بصوتها يحدّثني: ماتت قبل أن تراك يا بيك.. كيف وافقت أن تموت بهذه البساطة؟!

صارت النافذة بالنسبة لي ولأمي جحيماً، وجرح ديمة ساخن، ساخن كجمرة.

جدّتي تدلّك كتفي أمي، أشعر برائحة خبز تنبعث منها كلما حلّت في مكانٍ أنا فيه لا أعرف كيف رحلت رائحة الزيتون المباركة هنا في المدينة المشتعلة:

- قسمتها يا بتول، يا حبيبتي يا بنتي، عمرها انتهى، لا نقدر أن نغيّر شيئاً من قضاء الله ومشيئته، علينا التسليم والرضا، يجب أن تأكلي من

أجل هذا الولد في بطنك، فقط جدّتي وجدّي ممدوح يقولان عنّي الولد، وليس تلك الكلمة الرّخوة؛ بيبي.

مضى وقت طويل لم أسمع فيه صوت بتول، سمعتها أخيراً، اشتقتُ لصوتها، سكوتها عبء زائد على نفسي، يشعرني بالهوان، لا أستطيع أن أحيا مع صمتها بسلام، كانت تسأل جدّتي:

- تأكدوا أنّها ماتت؟

- تأكدوا يا رزقتي، تأكدوا، ودفنوها، قولي: الله يرحمها. تجيب جدّتي، ورائحة الخبز تعود لتملأ صوتها أيضاً. هذا النوع من التربيت الكلاميّ يخرج من فم جدّتي كطعنة حاسمة ونهائية للأمل.

- ماذا تبقى منها؟

- وجدوا يدها التي فيها السّاعة، مع قليل من رأسها وشعرها.

تتقيّأ أمي، وتكمش يديها فوقي، تفتح جدّتي كفّيها.

تصبّري يا بتول، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، حكم المولى ورضينا بحكمه وقضاه.

يعلو نشيج أمي، تصير لأول مرة أمامي حالة بكاء شفافة، لا تدفع لي بأسباب تبرر انهيارها شبه التام، وأنا الذي لي عليها حق السكينة والحياة ولي على ديمة التي تركتني حق الفرح، كان مشروع غياب مؤلم يُنفّذ بعراقة وأصالة الموت أمامي، كم من ألم عاشرته، وصرت أعرفه وأشم رائحته! لا أريد مزيداً من الفرص والتجارب يا ألله، إنّني جاهز للخروج وأنا بكامل تعوّدي على هذا الكون الذّميم.

كيف سأخرج إلى هذه المقبرة الجماعية، وكيف يتربّى سقف الوجع ليرتفع إلى حدّ موت حبيبتي ديمة قبل خروجي إلى النور؟!

....

يرنّ رضوان - صاحب شريعة حمورابي - ترفع أمي هاتفها المحمول، ثم ترميه إلى جوارنا، يعود للرنين، ترد أمي بنعم، فيتحدث رضوان كثيراً، بصوت قاسٍ كأنّه صوت سميح؛ عمّي القائد العسكريّ السابق، يحاول رضوان أن يعيد أمي إلى اعتياديّة عالمها، يحاول أن يفرّغ وجودها، وغايته فقط لأجل البيبي القادم؛ إنّني ذريعة حياة بالنسبة له، يغوي بها أمي بتول.

تكتب أمّي في دفترها بيدٍ مرتجفة وأسمع صوتها؛

«أما فخر في تلك الصحراء اللّعوب، يجلس على شاطئ الفجيرة، ينضح عرقه في ظلّ رطوبة خانقة، يرتّب قلقه، أوراقه، يلتف على روحي الجريحة، يحاول أن يجعلها تؤمن أنه كلما علا صوت الموت شفّت الروح، واقترب نور الخلاص، يرسل لي صورة لتذاكر الطائرة، ويحاول تضليلي وتخفيف فقدي لرفيقة روحي ديمة بالفرح القادم مع وصوله، يحاول صرفي عن هذه الأوقات المتوترة، المنتفخة ببشاعتها، مرمماً هذا الشّرخ الذي أحدثه رحيل ديمة المفاجئ، وأنا بعد في الشهر السّابع من حملي، أودّع أحبتي، ويقبع جنيني مستكيناً في بطني، لا حول لي ولا قوة.»

سارق المطر (٤)

استغربَ عدم وصول رسائله إلى ديمة عبر الواتس آب، مضى يوم كامل على إرسالها، وإشارة الخطّ الواحدة تردّ بوقاحة، إنّ هذه الحبيبة على الطّرف الآخر لم تستلم رسائله. وكان قد غاب عنها كثيراً محاولاً بشراسة أن ينظّم وعيه ويرتّب قلبه في البقاع الغريبة، البعيدة التي وصل إليها.

هذه الرّوح الإنسانية بين جوانحه امتحنها كثيراً، واعتقد بسبب طراوة ونداوة شوقه، وبسبب قهر المسافة، أنّ الموضوع يخصّ الشبكة فحسب، أو انقطاعات التيار الكهربائي المتكررة في بلد قابعة على كفّ عفريت الحرب.

رتّب أمور الصّغيرة، وجهّز أغراض درسه الصباحي لليوم التالي، لكنّ القلق أفسد قلبه، قرر- بعد أن جلست ياسمين تلعب بمكعباتها، وألعابها البلاستيكية وتطعم دميةً على يدها، ممارِسةً دور أمومة مفرطة في إعلانها للفقد - أن يفتح صفحته الشخصية على الفيس بوك، بعد أن ألغى تنشيطها منذ شهور، لعله يرى لها ظهوراً قريباً أي لديمة فيهدأ قلبه ويرتاح باله.

طالعته صورتها البهية، استدارة ساحرة لوجه حنطي، واثق، يضجّ بالبوح والأسرار والحكي، وعينان مثل فرحَتين، تصطادان ببراءة طفليّة، وتخطفان (شروش) قلبه.

ما من أثر قريب لها، لا ظهور، ولا مشاركات ولا نشاط واضح، وآخر منشوراتها منذ ثلاثة أشهر تقريباً. توجّه إلى صفحات الأخبار، أخبار البلد، أخبار البلد بدقيقة؛ وكأنما طُرش قلبه بزفت ساخن، يعلم أسلوب

أهله في الفترة الأخيرة، لا يخبرونه عن أي شيء دمويّ، يتّفقون جميعاً على أنّه يجب أن يحيا بسلام وقوة في تلك البلاد التي هاجر إليها، ويتفرّغ بشكل كاملٍ لبناء حياة ونجاة تليقان بمن قطع كل تلك الآلام والمسافات ليصل إلى ألمانيا، لذلك كانوا يحتفظون بأخبار الخطف والقتل والتفجيرات والاعتقالات، ويعولون على ضيق وقته فلا يتابع أخبار الموت والدمار.

هذه الخرائب والحرائق التي طالعته منذ الصورة الأولى، إثر التفجير الإرهابيّ في سوق الخضار، كبّلتْ مسامه، وصل خفقانه الهستيريّ إلى صفحة الأسماء؛ ستون جريحاً، سبع وثلاثون جثة، عشرون منها على هيئة أشلاء في أكياس طبيّة.

أسماء الشهداء في التفجير الإرهابي - وفق تصريح المدير العام للمستشفى الوطني -

تشبّثتْ عيناه بالقائمة الطويلة، جلس بكامل طوله على الأرضية الخشبية العارية لغرفته، كيف تصير قائمة بمجموعة أسماء هي أطول مخطوط في تاريخه، هذه الفسحة من الزمن معدّة لكلّ الاحتمالات المتأرجحة بين الحياة والموت، تبطئ في انسحابها، وتمعن في قتله؛ الاسم قبل الأخير: ديمة علي السراي. صار يلهج بالاسم بصوت مرتفع أقرب إلى الزّئير، ديمة علي السراي، ديمة عليبي السرااااي، بأيّ ذنبٍ قُتلت؟

ليس ثمة مفردات، يقف، لا تحمله ساقاه، يقرفص، يقف كالملسوع يركض في أنحاء الغرفة:

(يا ألله، ليش يا ألله... يا ألله...)

هذا السّؤال يجب أن يدرج في منظمة حقوق الإنسان، ليعوض عن مساعيها في مساعدة البشرية لتحمّل ملوحة الحروب وجمر رصاصاتها.

ياسمين الصّغيرة تظنّ أنّه يلاعبها، تضحك كلّما تسارعت خطواته، ترمي بدميتها، الابنة البديلة وهي الأم لها، ثم تقف تتأمله وتبدأ بتقليده، تركض وراءه في أنحاء الغرفة، يرتطم صوته بالفراغ والجدران، والصغيرة تضحك، لا تنبثق تلك الدمعة الضمادة، تتحجّر في قلبه ورئتيه، يسقط راكعاً، مرتجفاً، يخفي وجهه المشلول ألماً- عن الصغيرة- بكفيه.

تلحّ في إبعاد كفيه عن وجهه، وهي مستمرة في ضحكتها بطفولة لذيذة، يكشف وجهه، ينظر إليها وألف كسر واندحار وموت في عينيه، فتضمّه سوسو الصّغيرة، يمارس غواية الوجع في حضنها الصّغير، يريد خلاصاً، يريد أن يعود عقله إلى مداره كي يتمكن من الإحاطة بحرائقه، تضامنت أبوّته معه، طبخت له كفوف الصّغيرة التي تحتضن خديه صبراً جميلاً في غياب دموعه وحياديّة الرحمة التي جعلته على شفا رمادٍ كاملٍ.

ماتت ديمة التي آمن بالليل لجمال سواده في شعرها، وخبّأ حنطة وجهها في صناديق قلبه الكبيرة، ماتت المرأة القاعدة ففقد الراحة والسكون إلى الأبد.

دفتر سميح (٥)

يجتاحني الحزن حتى نهاية الجلد المزموم من رجلي المقطوعة، الموت المجانيّ وحده يدفع عن الذين مثلنا تهمة الحياة الاعتباطية وشبهتها التي نحياها من دون تردد.

قدّمت ديمة بموتها الفاجعة حقيقة نخرتني، حقيقة أنّني كنتُ أحبّها، وأغبط «معتصم»- سارق المطر- بل أحسدهما مع قافلتهما التي كانت تسير من دون غبار. حقيقة أنّ الليل استوطنني، استوطنني وخرّب روحي، وصرتُ أسير إلى حتف طويل لا نهاية له.

هذا الرّحيل - رحيل عينَي ديمة اللوزيتين - لواء تسقط تحته رجولتي العرجاء وقلبي معاً.

بدأتُ أسدّ ثقب غيابها بسيجارة لا تغادر زاوية فمي، أشعل أختها منها قبل أن تنطفئ، وأسدّ ثقب غياب ساقي بزجاجة عرق، تبالغ في إعطائي شعوراً بجذل خادع وسلام في آن. خدرٌ جميل، جميل.

ضلال.. ضلال...

كتبتُ على رأس الصّفحة العشرين..

دارين لم تكن وهماً، كانت شاهدة قبر زرعته في الليل، ثم أنصتّ وتذوّقتُ صداه الجارح في مساحات ندمي الجهراء.

دارين الحمقاء، البهية، البيضاء، التي عملت لصالح أحد الفروع الأمنية، أسهمت في تغذية العصابات المسلحة بكلّ أنواع الخرائط الزمنية والحركية لوجهاء البلد وزعمائها، الذين يتحركون بدأب لزرع الدفء وإعادة بعض الأمان، من خلال مصالحات معلنة أو سريّة.

هذه الفروع وفّرتْ كلّ شيء من أرض وحدود ونساء وإمكانيّات، لتكون في خدمة مصالحها، ولتجمّل القبح والموت، ولتصدّر وجهاً ناصعاً لبلادٍ كلّ ما فيها بدا كالح الغبرة والقتامة مثل تمثال يوناني قديم.

كيف أُسجّل صراخها؟ ولا يقف بينها وبين الموت سوى كمشة لحظات أهبها إياها، ليت صراخها وصداه يهاجران جمجمتي إلى الأبد، كانت تتضرع، وكلّ من وقع بين يديّ لم يكن أحسن حالاً منها، ثقب قلبي صوتها، ولمّا يزل رجعه يتردد متأبطاً روحي كندبة سرمدية:

- دخيلك لا تقتلني، سأختفي، أذهب حيث تريدون، ولا أنبس بحرف، أهجّ خارجة من البلد كلها..

تمارس طقوس الرّجاء، بل ما تبقى لها من قوة. لم تنتبه عندما مشت في بداية الدرب إلى بؤسه، وإلى الدمار المحتم في نهايته. مشت في درب هلاكها مستمتعة، مبتهجة بالدّولارات، والسّهرات، والغنج البسيط الذي يدرّ عليها أرباحاً طائلة.

ما يكتبه قلمي تاريخ معاش، أنا سميح صاحب السّاق الواحدة، والضمير الميت، وهذه الدارين صوتها كتب تاريخ بعثرتي. مددّتُها، ألصقتُ فمها بقصدير لاصق، احتقن وجهها من صراخ مكتومٍ، ربطتُ يديها إلى الخلف، افتعلتُ معها شهوتي البشعة، كسرتُ (أباجورة) طهرها، التي كانت لم تزل محافظة عليها، أطفأتُ أنوثتها وحياتها معاً لأدخل مرحلة شتاتي القادمة.

هناك مشاهد لا تُكتب، مشاهد الجهات الضائعة في عيني دارين، وأنا أوغل فيها، مشاهد تسرّب شرفي على سروالها الأبيض قبل أن يتسرب ختم أنوثتها، مشاهد توسلها الأخرس وأنا أقدّ الثياب عن جسدها، مضيتُ إلى العماء، العماء.

كانت هادئة، استوعبت موتها قبل أن أستوعب جريمتي، انسكاب دمها مفتاح أطفأ أنوار الكون كلها، خلقتُ لنفسي وهم أنّ موتها أفضل من حياتها بلا شرف، خلقتُ هذا الموت المُنكّه بعذر، لأزرع رصاصة صاخبة بين عينيها.

لم أسمح لذاتي أن تواجه إجرامها المشبوب.

صرختُ آمراً، حاسماً: (سلموها لأهلها، قولوا: وجدنا الجثة في بساتين شبعا، مقتولة منذ بضعة أيام).

أذعنوا، الجميع يعرف، ويذعن، الجميع يصل إلى حواف الرفض والتمرد ثم لا يسمحون لأصواتهم أن تنطق، في بقاعنا كلّ رفض قرين الموت، وكل معرفة يرافقها شقاء وخذلان.

أشربُ من زجاجة العرق، ذاكرة الظلم أقوى من خمائر العرق، لقد منحتُ روحي طوعاً لهذه المطرقة القاسية، وهذه الكتابة العبثية لن تفلح في كيّ جرحي المفتوح.

قبل الضوء (١٦)

كنتُ قد امتلكتُ فتنة السّمع بشكل مرهف وغريب، فبتُّ إذا تنحنح رضوان في إجازة أمضاها بيننا أعرف أنّه صوت رضوان، وصرت أعرف رائحة الأماكن من أمي بتول عندما تزورها، مثلما عرفتُ الآن من رائحة الأرض النفّاذة أنّني في الوعر الشرقيّ، في بيت جدّي ممدوح.

سمعتُ صوت مزيونة، تلك التي اخترقتني بشراهة منذ أشهر، ورأتني في فنجان أمي، ساحرة هذه المزيونة، صرتُ أقتني ذاكرة جميلة، وأتلذذ بها مثل العرب، كما تقول أمي.

تسأل جدتي مزيونة عن سبب تركهم للضيعة، فتقول إنّ الرجال (يدورون رزقهم)، ويرعون بحلالهم.

- أنتم متعودون أن ترحلوا، لكن ليس الآن، الآن مواسم خير وغلال وافرة، لماذا تحركتم باتجاه الشرّق كثيراً؟! تكرر جدتي استفسارها، مستفهمة من مزيونة صديقتها البدوية الجميلة، وهذه بدورها تغلّف روحها بكذب رهيب، تمارس مراسم قومها الذين يبترون علاقاتهم مع المكان برحيل مطلق، شعرت أنّ هناك ما تخفيه.

غمزت أمي بتول لجدّتي، لكي تترك مزيونة تغادر.

- ماذا بك يا بتول؟

- لا أعرف، هناك سرّ في تحركاتهم الغريبة، شيء يخبئه بعض هؤلاء البدو، ألا ترين كيف يختفون تباعاً من الضيعة؟

تتعلق جدّتي بالعلاقة الطيبة معهم، وتقول هذه العلاقة عِشرة عُمرٍ، وجدار متين، يبتسم جدّي ممدوح ناكراً موقف أمي بتول، معززاً

حسن ظنه بهم كجدّتي، مؤمناً بقلبه الذي يحبّ كلّ من عرفه منهم، ثم يروي لأمي قصصه معهم وكيف أنقذوا قطيع أبيه سنة الثلجة الكبيرة، وكيف عادوا من مناطق بعيدة سنة المحل وجلبوا معهم القمح والتمر لأهالي الضيعة ولم يقبلوا أن يأخذوا ثمن ما جلبوه، وكيف حمل حمد زوج مزيونة أخاه هلال على ظهره من الكروم الشرقية وكانت العزّاقة الآلية التي قد اقتناه قد أحدثت جراحاً مخيفة في ساقيه وكادت تفرمهما تماماً.

أسمع مع أمي ضربات متلاحقة على البوابة الخشبية، تفتحها جدّتي باطمئنان:

تفضلوا، حي الله.

تسلّم على مصلح، وتنادي لجدّي.

تعلم من جدّي بعد مغادرة مصلح أنّه جاء ليأخذ الخبز والسكر والرّز للدواعش في المعسكر الشّرقي، نساء الضيعة يخبزن لهم خبزاً (عربياً مشروحاً) من حنطة بلادنا، ويبعن كلّ خمسة أرغفة بدولار، ومصلح يقوم بأخذها وتسليمها.

يتفّ جديّ ممدوح على جنبٍ بغلٍّ:

- والله غريب هذا الانفلات، ما بقي ناموس عند البشر، من أجل حفنة نقود يبيعون شرفهم، ياعيب الشوم عليهم، يقصد مصلح وغيره من شباب الضيعة الذين يمدون أصحاب الراية السوداء بما يلزمهم ويساعدهم على البقاء.

بدأ الثراء يظهر بوضوح على العديد من الأسر، التي دأبت تؤمّن كلّ مستلزمات الطعام للدواعش، ينفّذون تجارتهم بخبث كبير، وبسكوت ملغز، متّفق عليه وبتعاون مريب من بعض شبابنا وبعض شباب البدو.

يتّذكر صوت أبي مروان: طالما هم لا يؤذوننا، أين المشكلة إذا شبعنا نحنا وأولادنا، والله الفقر ضرب أطنابه في عظامنا يا «أبو أكرم».

تُشغّل أمّي السيارة، أترنم لصوت محركها، أعلم أنّني أخرج لأشم هواء نقياً، في الحقيقة كنتُ أحبّ المشاوير في الضيعة، ولا أطيق المكوث في شقتنا الهادئة تلك في المدينة، أصير كُلّي لهفة وأمتلك فجأة ألف عين وعين وعشرات الأنوف فيّ، تحدّثني أمي بتول:

(- أتعرف أين نذهب الآن يا بيك؟).

أقنعها أنني أسمعها، أحرّك شفاهي، أرمش بجفني، وأرفع قبضتي متباهياً ببصمتي، التي تمايزت بعنفوان وقوة خلال هذا الشهر، أحرّك قدميّ، أنساب معها، وأتلهّف، لتعرف أنني صرت مكترثاً جداً بهذا العالم خارج بطنها، ومتشوقاً أيضاً، أتحرك أكثر لتنطق فتخبرني، أخاف أن أفقد قدرتي على اللهفة إذما تكلمتْ، لكنّها تكلّمت ورغم ذلك ازددتُ شوقاً:

(- إلى بيت جدّتك أمّ فخر).

تقف أمي أمام بيت غير مسوّر، سوى ببضع شجرات من البلوط، بيت بمدخل عريض، وشجر زيتون كبير يملأ الأرض أمامه، وفي وسط أشجار الزيتون يقوم بيت من حجر أسود قديم، وشبابيك خشبية باهتة، أرى بعيني بتول أمي امرأة مسنّة جالسة تحت شجرة زيتون عظيمة، مستندة إليها وتلبس وشاحاً أبيض سميكاً على رأسها.

تبدأ روحي لهاثها، تنطح، تنطح، وكأنّها تشتهي الخروج، أشعر بقلبي يكاد يتشقق من لهفته، أكاد أفتح ثقباً في بطن بتول ليصل صوتي للمرأة المسنة، كنتُ أريد أن أخبرها أنني ابن فخر؛ ولدها الحبيب البعيد، أريد أن تفرح لأني حفيدٌ صحيح معافى، سقط صوتي

أمام جبروتي هبلي وصدقي، ومناطحتي على الفاضي، حسب لغة أمي، هل ستغفر لي أنني ابن حرام؟

غريبة أمي بتول، كيف تمارس فرحها كخنجر تزرعه في خاصرتينا معاً. كانت أمي تعرّضني لضوء أم فخر الباهر، لتشفيني من شجن تكويني الحرام ربما، فلا أصير مريضاً بقصّتي فيما بعد.

لا أحتاج تصريحاً من بتول لتؤكد لي فيه أنّ «فخر» هو حبيبها الأوّل بل الحبّ كله أوله وآخره، وأن هذا الحبّ قيامتها ونهايتها، وأنّ هذه البطن المكورة وحدها دليل على صدقها وإثمها على حدّ سواء.

إشارات العتمة (١٦)

يتحسّر فخر ويخبرني أنه اعتاد أن يدفع غرامة رفاهيته غربةً، وهو يعلم أن الحرية التي يطلبها تعادل المحظور في بلده، لكنها في هذه الصحراء هي ديناميت حقيقي.

تعلّم في هذه البلاد التحمل، تعلّم أن يكون غريباً والغريب يجب أن يكون أديباً «الغريب يا إمي أديب» كما تنصحه أم فخر دوماً، والأديب يعني أن يكون بحاله ولا يتدخل في شيء يؤثر على عقد عمله أو وظيفته أو علاقته بكفيله، وانحنى في هذه الصحراء بالعدوى لتراث الصبر الذي تمتلكه جِمال العرب فيها. أدرك أن قمة البلوغ والحكمة في غربته قدرته على التكيف والحياد وعدم التدخل في أيما شيء سوى رزقه ودوامه المنتظم.

أمضى فترة أسبوع كامل وهو يتنقّل مع زوجته وسعد بين الأسواق لشراء كلّ مستلزمات السّفر والهدايا.

عيناه تتربصان بهاتفه المحمول بشكل دائم، وتجوسان خلسةً واجهات ألبسة الأطفال المشرقة بألوانها وموديلاتها.

دخلتُ في شهر حملي الأخير، صرتُ أعي بشكل كامل ما فعلته وأنا على شفا تحولي إلى أمّ تسكن في بؤبؤ الحبّ والمغامرة معاً، كنتُ كلما ازدادت رسائلي إليه أي فخر، ازدادت مساحة اطمئنانه وأمانه وفرحه.

الوقت الذي يقضيه مع سعد وزوجته في الأسواق وقت عليل، ينزلق فيه كلّ شيء إلا اكتراثه وحذره من ركض مفاجئ لسعد، أو اصطدام أحد المارة به، أو لطمة من متسوق يتحرك بسرعة ومن دون انتباه.

زوجته كانت مشبعة بأمومة وحشيّة تجاه سعد، وتشعر أنّه رسولها وليس طفلاً بمتلازمة داون.

حتى إنّها تحتضنه كثيراً، وتخبره أنّ الله لو لم يرسله نبياً لها، لأرسله نبياً إلى الصين أو الهند، فالعرب أرسل لهم نبياً، وليس من العدل أن تبقى كلّ تلك المليارات بلا نبي.

تحت رحمة لغة سعد وطلباته وفرح تجواله يمتلئ قلب فخر نوراً، يطلب سعد بندقية بلاستيكية، رآها في واجهة أحد محلات ألعاب الأطفال، يشير إليها بإلحاح وكأنّه مخلوق أرضي أغواه القتل، وجاء من أقصى الخلق ليمارسه.

يحاول فخر أن يلفت نظره إلى لعبة أخرى، فيها سمكات يدرن وصنّارة صيد، يتفرج عليها سعد وكأنه يتفرّس وجهه في مرآة، يمسح فخر لعاب سعد:

- أليست أجمل بمئة مرة من البارودة يا بابا.

يبدأ سعد تحجّره، يضرب الأرض بقدميه، ويحمل قبضته ليلطم وجهه، ويشدّ شعره، هذه الطريقة من العناد والرفض تُقزّم «فخر»، خاصة إن كان هو السبب في رفض طلب كهذا الطلب لسعد، ونظرة الأم الحانية إلى سعد الباكي تصير حجارة من نار، تقذف بها «فخر» بكل تأنيب.

يحاول أن يشفى من هذه الحالات النفسية التي تصيب البشر، من خيبة، وغضب، وانكفاء.

ينحني نحو البارودة، يحملها باستسلام، ينقد البائع الهنديّ ثمنها، ويسلّمها لسعد، سعد الذي يجيد قراءة الوجوه، ويفكّ كلّ ألغاز وجهه بابتسامة عريضة نقية.

أشعر بحروف فخر تبكي وهو يكتب لي هذه التفاصيل، أرتاح لأنني صرت أعرفها وأؤمن أنها نصيبي الذي ينبغي أن أحمله من غصّته القدريّة هذه...

يوجه سعد بندقيته إلى رأس البائع الهنديّ، ثم يبتسم له، يحرّك سبطانة بندقيته باتجاه عيني فخر، الذي يهزّ رأسه مثل سجين مضطهد في نوبة اعتراف كاملة..

يبدّل رأيه، تهديه فراسة قلبه إلى السّماء، يصوّب بندقيته نحوها، ويطلق رصاصته النّابهة الفلينيّة الأولى صوب الله.

قبل الضوء (١٧)

هذه السّعادة (جوّات) أمي بتول كانت تتناقص كلّما كبر حجمي، إنّني لم أحز بعد على اعتراف حقيقي بإنسانيتي، لأنني لم أخرج وأُلمس بملء الحواس، أرتجل وجودي، وأترقّب بريب ماذا سيحل بي، بعد خروجي من هذا المكان الرحيم، هي تنصت لحركتي كلما ارتعشت يدي أو رجلي، تتلمّسني:

- ستصير ملك الزمان والمكان بعد قليل، انتظر قليلاً فقط يا بيك.

تتجول بي في سوق خانقة، مزدحمة بالمئات، وشمس تموز هذه التي تلعلع فوق رأسينا لا تعرف الاستسلام.

جامحة أمي نحو حلم أن أكون بين ذراعيها، أن تميط عني لثام بطنها الشفوق وتخرجني إلى عدمٍ حقيقيّ أشتهيه وأخافه، كان زمني الرحميّ هو الأكثر أماناً وسكينة رغم أنني ودعت دمية وأنا أعيشه بملء صمتي، لا أعرف ماذا سيحصل بعد وأنا في هذا المكان.

يرنّ هاتفها المحمول:

(- حي الله بضوء القلب).

(ضوء القلب)؛ هذا البطر في العبارة، هذا البهاء الذي يملأ روح بتول، يعني أنّ «فخر» هو المتصل.

يدوّخني صوت أمي بلذّته وشغفه وفرحه، وهي تتكلم معه. سألتْهُ:

- حجزت؟

- نعم حجزتُ، أتاكِ الحبُّ يا سارقة القلب. ضحكتْ.

إنّني قادم إلى حياة كاملة الحب، منقوصة الأمان والجهر، لا مناص من أن أهديها خروجي المُعلن.

يشعشع وجهها بإدراك وصوله في الرابع والعشرين من تموز، هذا التاريخ حرّر موعد الفرح، وأخضع رقبة قلبها للهفة انتظار رحيم وجميل وقريب.

- متى حدّد الدكتور موعد القيصرية؟

- ٢٥ تموز حبيبي.

تهيَّأ لي أنّني صرختُ، فائر الغضب، كيف يطاوع أمي بتول قلبها، كيف تستبيح لنفسها أن تخرجني قسراً؟! ثمّ كيف وافق أبي فخر على تلك الطريق في إخراجي، هل هذه الطريقة المعاكسة تماماً لأسطورة زراعتي الرومانسية ضرورية؟

صار أفق الرّحم أبلق، صار لأول مرة زنزانة، ولأوّل مرّة امتلكتُ لغة رفض وحقد متمردة، حادة، شعرت بغيظ، واضطهاد، شعرتُ أن من هو مثلي ليس بحاجة إلى مزيد من الظلم كي يُخرج به من ملاذه إلى هذه الخيبة الباردة التي يسمونها الحياة.

طولي أكثر من خمسة وأربعين سنتيمتراً، وزني أكثر من ألفي غرام، لكنّني راضخ لجوعي وحاجتي إليها، كأنّني كلما صرت أكبر، قلّت حيلتي أكثر.

منذ اللحظة صارت علاقتي مع بتول أمي، التي ستخرجني من بطنها بقيصرية، كعلاقة أولئك الذين يقبّلون الأيدي التي تطعمهم وتهينهم في آن.

تنتقي لي (لفلوفة) زرقاء، وأخرى بيضاء، وثالثة صفراء، تحدّثني عن بلوغ كمالي في أحشائها، من دون أن تشعر بخجل؛ لأنّها هي وطبيبها من سيحكم عليّ أنني اكتملت، وسيخرجانني عنوةً، من دون أن تشعر بالخجل لأنني خطيئة اكتملت أيضاً وسيُطلق سراحها.

كنتُ متعكّر المزاج، لا أعرف كيف يطلقون اللّعنات، تذكّرتُ أبا فهد كان يقول: (يلعن أخت البلد).

فقلت: (يلعن بطن بتول، ويلعن اكتمالي الذي يبهجها). سأمشي خطواتٍ نحو ولادتي الموت، مطوقاً بقبضة رحم كان رحيماً، وسيخرجني غصباً طبيب ماكر، اتفقت أمي معه على تحديد نهاية نضجي ورحلة اختبائي في أحشائها، ليرميني في بلاد جافة، تزعج كلّ الناس، من أبي فهد، إلى عبدو زوج انتصار، إلى محمود زوج اعتدال، إلى ديمة المتشظّية، ومعتصم المهاجر الأبله...

(يلعن هذا البلد، يحكم مدى روحي وكياني).

أغمغم بقبضتي من دون صوت، لتفهم أنّني أريد أن تمشي بي إلى الظّل، فهذه الشّمس المصبوبة فوق رأسي تكاد تجعلني سائلاً مرجوجاً بلا حقوق.

تتجه نحو محلّ لبيع العصائر، تضع الأكياس (لتخشخش) قربنا على الطاولة، وتبدأ بالشرب.

هذا الماء رشوة لأدلّس على فمي، وأخرس، تطيّب خاطري به، تمارس عليّ ديمقراطية قومها، هي تعطيني فرصة لأوافق على قراراتها، وليس لأرفضها أو أناقشها، وهذا نوع من بشاعة استباقية سأراها جهراً عندما أخرج.

يرنّ هاتفها المحمول من جديد، رنات لحوحة متتابعة:

- أهلاً حبيبي!

أهلاً حبيبي تعني أنّ رضوان هو المتصل، حبيبي مفهوم جميل، لكنّه أضحى مأساويّاً، متحرّشاً بالنسبة إلي، عندما يحمله رضوان كلقب وهو المؤمن بشريعة حمورابي، وبي وبقطع رأس مقابل رأس سالم.

هذا الخلط والخداع في استخدام المفاهيم جعلا روحي تتأتئ إلى غروبي. فلا تعرف سمتاً حاسماً تنتمي إليه. لماذا أجزلت أمي كلّ هذا الخداع؟!

- حبيبتي لا تتعبي نفسك، وتجرجري ولي العهد في هذا الجو الحريق، أحضرت له كلّ شيء من هنا.

غريب هذا الأنا، أبي/ رضوان يحضر لي كساء كاملاً، من صحراء لا تتمازج فيها حبتا رمل - وتختلف عن الصحراء التي يسكنها فخر - يعيش فيها تنافرها الأزلي، في صراع نحو إقامة أفضل على سطح هذا الكوكب، وأمي تشتري لي الكثير الكثير.

فقط فخر له أن يتمتع بنعمة أنّني موجود ومن صلبه، ولكن لا يحقّ له تدليلي، هو فقط كساني من روحه، ومن دمه ويكلمني على طول شاطئ الفجيرة- كما أخبرتني بتول مراراً- دون صوت، ماسكاً كفّ أخي سعد.

كنت أنظر لأمي هنا ليس بمنظار الذّنب، بل بمنظار العتب؛ إذ حُرم فخر من وقفته، وإشهار وجودي وانتسابي له. وجعلتني منكوباً، منشطراً إلى نصفين؛ نصف يؤمن بقلبها وما أوتي من حبّ، ونصف يؤمن بخلوتي الإنسانية وحقها في الاعتراف (من أكون).

هذا الإحساس المفرط، بقيمتي، هو ما جعلني جنيناً مختلفاً، وهو ما سيجعلني فيما بعد أصرخ على الدوام:

- أنا لست ما أنا، أماثل عطيل العربيّ السوريّ.

رضوان سيصل في الثّالث والعشرين من تموز، وفخر في الرّابع والعشرين من تموز أيضاً، أمّا أنا فسأخرج وفقاً لقيصرية بتول في الخامس والعشرين من الشهر ذاته، ثلاثة رجالٍ في مواجهة قدر صنعته أمي والجنون والحبّ.

دفتر سميح (٦)

مازالت الصّور سيّدة العقل والوقت، تبعدني دون رجوع عن إنسانيّتي البيضاء- فشرت يا سميح؛ أقول لنفسي مقهقهاً، لم تكن بيضاء أبداً لكني هنا أمارس فذلكة الكتّاب وأبيّض صفحة سيرتي فيما لو وقع دفتري بيد أحد وقرأ تخريفاتي. تتوافد الصور مشحوذة الأسنان وحادة، كاسحة لروحي، عاطل عن كل عمل نافع كنتُ، عن كل نشاط مفيد، فقط تجلدني ذكرياتي، ليست ذكريات بل ما يحمل رأسي من مواد متفجرة، مميتة، ستلازمني حتى أفولي.

ساقي المبتورة وثيقة تنسبني إلى بلادي المشتعلة، أتذكر الأسعار التي ارتفعت، وقلوب الناس الحائرة في كيفية تأمين خبزها وما يسد رمق أطفالها، ودهشتهم إزاء أرواحهم التي صارت أرخص شيء في هذه الأرض.

أفتح دفتري الملاذ، صار قبراً عطوفاً لذكرياتي الوسخة، وملاذاً بحجم من قتلتهم جميعاً.

على رأس الصفحة كتبتُ:

((النهب))

عمليات نهب وتحميل وسرقة أثاث البيوت من قرى وبلدات متعددة، كانت مهداً لشرارة الخراب الأولى، أتذكّر تلك الصور؛ صور الموت الجماعية، الفناء الذي حلّ بهؤلاء، الحروب لا تميّز بين مقاوم وضحية بريئة، ليس لها علاقة بالسياسة، هذا دأبها تحرق الأخضر واليابس من دون أدنى تمييز بينهما.

لا تعطي منفذاً للتفكير ضمن هذا الوقت القصير، عند الهجوم يصبح أيّ منع مضاداً للحياة، وأيّ ردّ فعل يستوجب السّحق الفوري، وأيّة ظنون تستوجب الدّفن العاجل في أرضها قبل أن تنبس.

كلّ من كان تحت إمرتي من مجندين- انتموا إلى الخيانة مثلي- يتقاسمون تحميل العفش من الحارات، ونقله إلى سيارات كبيرة، كلّ حارة على حدة، يحملون كلّ ما فيها من أجهزة كهربائية، فرش، خشب، حتى شبابيك الألمنيوم وحنفيات المياه، كان يتمّ تشليح هذه البيوت لتحتفظ إلى وقت طويل بظلال الحرب التي مرّت من هنا، والتي أعادتها إلى عبوديّة مفرطة، وهدّمت بنيتها التحتية والفوقية والنفسية، وأنا أقف على الطريق الوحيدة المؤدية للخروج من المدينة، أتقاضى عن حمولة كلّ سيارة كبيرة ستمئة ألف ليرة، وأحلف لجوريّة إنّه لم يدخل لبيتنا رجل كرسيٍّ واحد من عمليات التّشليح، وهذا صحيح إذ كنتُ لا أحضر إلى بيتي أي أثاث من المناطق المدمرة.

جوريّة تعتدّ بي، أكثر من رضوان، رضوان الهارب إلى الصحراء، والذي يلبس أثواباً خليجيّة عندما يرجع إلى البلد، ويزيّن أصابعه بخواتم ذهبية فصوصها كبيرة، ويمارس صراخه الفوقي عليها واضعاً رجلاً فوق الأخرى، ويقول «فلوس» أمام رفاقه وأهل البلد الذين يأتون لزيارته. أما أنا.. فسميح الذي يقتل الوقت بالحرب، ويسحق أعداء البلد، ويبذل قصارى جهده ليبقى شريفاً في عيني جورية أخته على الأقل، وكنتُ أضع أيضاً ساقاً فوق ساق عندما كنتُ أمتلك اثنتين.

انفجرت ضحكتي ودموعي معاً.

أتعلّق بتلك الصورة؛ صورة جوريّة المعتدة بي، وأتعلق أيضاً بصوري تلك؛ صور العفش المُحمّل، لتذبحني صور الذّاكرة كضريبة لجرائمي. عندما يستيقظ هذا الماضي الآثم، أهرع إلى قلمي ودفتري، مخلفاً ورائي روحاً متقرحة تبحث عمّا يطفئ ضرامها.

أبعد ساقي المبتورة عن الضوء السّاقط من النافذة، أنظر إلى أثاث بيتي، كان أثاثاً أنيقاً على تواضعه، ولكل قطعة فيه حكاية تخصّ أهل الدار، فهذا المكان المفضل لجلوس أبي رحمه الله، وهذا مقعده أمام الشباك الشمالي، حيث يجلس باحثاً عن نسمات لطيفة في الصيف الحارّ، وهنا إلى يمينه كانت تجلس «ست الحبايب» وتمدّ رجليها وقد أعياهما الكبر والتعب على الفرش الإسفنجية، ماذا لو جاء أحد وسرق كل هذا الأثاث وما يتركه من صور خلفه، ماذا لو سرقوا زجاجة عرقي ودفتري هذا؟!

أنظر إلى مكتبتي التي عشّش عليها الغبار، أحاول كبت مشاغبة هذا الصهيل المنبعث من الكتب والذاكرة، أشرب أكثر، أشرب نخب ابتعادي عن حدود قلبي.

أبحث عن رحيل، عن شراع يحملني بعيداً بعيداً، أستند إلى سريري، أتناول «خريف البطريرك».

في أوقات الحرب، لا يعود للكتب أيّ وجود، تصير الكلمة التي كانت في البدء مجرّد ظلّ، مجرّد صدى لصوت كان سينطق حقاً لكنه نطق بالباطل، تصبح البلاد تشبه الرائج فيها من أسلحة وقاذفات وقنابل موقوتة، ومخدرات لم تكن ترفع رأسها من قبل في بقاعنا.

أشدّ عينيي أكثر، تزداد الرؤيا، خريف البطريرك يكاد ينطق بين يديي بعد أكثر من خمسين ويلاً، وخمسين ذلاً، لم يزل البطريرك يحيا ويتناسل الخراب، كل بطريرك كأبيه، يا له من نبيّ هذا الماركيز غابرييل، يكتب روايته المؤلمة هذه لتصلح لكلّ العصور، ونحن كما نحن دائماً نتناسل جرم الصمت والخنوع جيلاً بعد جيل.

لا أعرف كيف ولماذا تتسع ذاكرتي بكلّ هذه الكثافة، وكيف يترمّد على وجهي كل ضوء للحياة؟

لعلّه القصاص الأقوى والأكثر رحمة في آن أن فقدتُ جبروتي، ودفعتُ ساقي ديّةً زهيدةً لأرواح كثيرة، اغتلتُها بعمد أو من دون عمد، وبقيت هكذا أملك روحاً تجلدني على مدار الوقت.

أنظر إلى الأرض، إلى فردة شحاطتي، شحاطة بفردة واحدة.

أذكر صبّاط حسين، حسين الصّغير وصباطه الصّغير اللامع، كان رئيس قلم في حرستا، عندما أوعزتُ أنا /سميح للجميع أن يتوجهوا إلى داخل حرستا الشام، في ساعة استنفار عظمى، وقبل أن تسقط بيد المجموعات المسلحة، في محاولة انتحارية لإنقاذها.

جاءني حسين الذي كان يعد لدراسة الماجستير في القانون الدّولي، بعضلاته الهزيلة، التي دربها على الصّبر ومراقصة الأقلام.

حسين هجّن جناحي علم، ومحا كلّ وخزة ورغبة في القتل تحت جلده.

- أنا كاتب قلم يا سيدي، كيف بدك ياني أطلع.

(- روح ولك، كلّكم ستلتحقون بحرستا).

كنتُ سأقول له يا تنبل! لكنني ابتلعتها في الثانية الأخيرة، فأنا التنبل الحقيقي الذي أمارس منصباً قشّرني من إنسانيتي، وأضاع كل نور للعدل كان في حوزتي.

بذلة حسين العسكرية أنيقة، اكتشف حسين أنّ صبّاطه اللامع يشكّل مأزقاً في الحروب، هو إكسسوار غير مرغوب فيه، يكتشف بُعداً جديداً له من صبّاطه اللامع، أنّه يحبّ الوطن الذي لا يذلّه أبداً - مثلهم – يحبّه كثيراً، لكنّه ليس مقاتلاً.

الاستسلام حلية الضّعفاء، هذا ترفّع المثقف، هذه النقطة التي يكسبها في صراعه كي لا يصبح قاتلاً. أشفقتُ على حسين، أن تكون

مثقفاً يا حسين يعني أن تُقتلَ بصدمة الوطن، والصدق، وبالنقص الذي يعاني منه بعض البشر.

كان الضباط برتبهم العليا في الصفوف الخلفية، وأنا بينهم، نطلق أهدافاً حيةً من المجندين، وصفوف الضباط والأقل رتباً منا، لنكتشف مواقع القنّاصات على السّطوح المحيطة بمدخل حرستا.

حسين من دفعة الأهداف الحيّة الأولى التي أطلقناها باتجاه المدخل، لا يهمّ الثروة التي يخزّنها في رأسه من قوانين وكتب ومجلدات تتحدث عن العدل وسيرته منذ الجريمة الكونية الأولى إلى الآن، المهم أن نعرف موقع من يطلق النار عند مدخل مدينة حرستا.

أخرج هاتفه المحمول تكلّم مع زوجته بصوت متقطّع، مرتعشٍ:

- ديري بالك ع الأولاد يا سهيلة...

تقدّم راكضاً محلّقاً مثل حلم، لا تعتريه أيةّ رغبة في احتضان المزيد من الخوف، ركض باتجاه المدخل مباشرة مثل طعم مطيع، رصاصة واحدة أردته، في موطن صريح لكاتب قلم غير قابل للطعن.

عرفنا موقع القنّاص - الذي كان ربمّا من أقرباء حسين ذاتهم قبل أن يهجر حرستا، وقبل أن ينضمّ معظم ذويه تحت لواء جيش الإسلام ضربوا البناء كاملاً بقذيفة آر بي جي.

عندما دخلتُ ومن معي من الضباط، بعد نصف نهار وأكثر من المناوشات والقذائف، كانت جثة حسين لمّا تزل هامدة على الأرض بعينين مفتوحتين، على انعتاق بهيّ، وغبار طلع ماكر، ستنثره الريح في وطن صار للرّعاع، وليس لكاتب قلم مثل حسين. ربما لنذل مثلي أنا سميح الوغد، فالشعب بعد الحرب شعب جديد لا يشبه من كان قبلها.

قبل الضوء (١٨)

يروّعني صوت المكنسة الكهربائية، أحبّ مكنسة جدّتي أمّ أكرم؛ مكنسة القشّ، كانت مكنسة رهيفة، مليئة بالدّفء والحفيف وهي تنظّف الأرض في الضّيعة، وكأنها توائم الطبيعة وتفوز برضاها، أما هذه المكنسة في بيتنا في المدينة فهي تجأر كعفريت، أشدّ قبضتي بإحكام كي لا تكنّس بصمتي وخطوط كفّي، صرت أخاف أن أفقد أي تفصيل في جسدي على الرغم من لؤمه وتشكله في زمن الموت. أغلق جفنيّ بقوّة مثل عمّي سميح عندما يحاول أن يزفّ رؤاه، صرتُ متشوّقاً لاكتشاف الخارج بعد أن ابتلعتُ مؤامرة بتول التي ستخرجني غصباً.

صوت جدّتي أمّ أكرم في فضاء الغرفة، أسمعه كل يوم، هي التي تلازم أمي بتول، فقد دخلت أمي في شهرها التّاسع، وهي(باكوريّة) وسيأتيها الصباح - أي أنا - من بطنها كما تقول جدّتي أمّ أكرم.

تحملني في أرجاء البيت تنثني نصف انثناء لتنظّف، وترتب، وتمسح بعض الغبار. أصبح مقامي في بطنها ضيقاً وعسيراً، أعرف من حديثهما أنّ جدّي «ممدوح» ذهب إلى المطار لإحضار رضوان، تورّطتُ للمرة الثانية في الغياب عن استقباله، لكنّه قادم هو الآن لاستقبالي.

يزعجني انثناء أمي هذا، لقد أصبح المكان صغيراً أو كبرتُ أنا فضاق بي، ولم أعد أسبح كما كنت أفعل وأنا شرغوف، فيما مضى كان البراح حولي متسعاً، أمّا الآن فهذا الانحناء لئيم، لا هو بالانحناء العبيديّ الكامل، ولا بالتطاول الثّوري الشّامخ، يزعجني هذا المنتصف، المنتصف الذي أعيشه وأعيش فيه، نصف عدالة، نصف حقيقة، وهذا الزحف والتكوّر تحت سقف واطئ، يشبه السّقف الذي سأخرج إليه.

تحمل أمي حقيبة قماشيّة، مطرزة وأنيقة، تفردها أمام جدّتي، أرى ثيابي، وأنا لم أزل في الدّاخل، أستمتع بعريي الكامل في رحم بتول الآمن، كم أشتهي الوصول إلى الخارج!

تؤرقني فكرة أن أترك هذا العالم الذي يغلفني، ويتيح لي الحلم والنّوم والدّفء، والصّمت، أخشى أن ينفد حلمي إن رأيت النّور، وهذا الوجود المدلهم الذي أراقب منه الحرب والعشق والخيانة والجنون والموت؛ أحبّه كثيراً لأنّني ما زلتُ سليماً معافى منه.

تتأكد أمي من جهوزية حقيبتها، تستفزّني كلّما حملتها.

تعود للفّ ورق العنب مع جدّتي، تتقاسمان الوقت في الطبخ والأعمال المنزلية ريثما يصل رضوان وجدّي من المطار.

الحقيقة أنّ هذا الوقت غادر، فمنذ أيّام لم أعد أسمع ما تقوله أصابع فخر لأمي، لم أعد أسمع نقرها الذي أتابعه بشغف.

شبه انقطاع تامّ، منذ حلّت جدّتي وجدّي في شقّتنا إلى جوار أمي، في انتظار بزوغي.

اشتقته، اشتقت إلى صوره مع سعد بجسده القصير الممتلئ ورأسه المدوّرة، ذلك الأخ الذي لا يعوزني برهان لأثبت أخوّته، تكفي رجفة قلبي عندما تنظر أمي إلى صورته ووجه المتحلّق، وعينيه المندهشتين دائماً، وفمه المرخي، فيطرب قلبي، وأغازله حتى أنام.

تفتح أمي كتاباً، بين دفتيه زهرة نرجس مجففة، تقربها مني لأشعر بها.

أمي تعلّمني أنّنا نعرف الحبّ بمن نحبّ، وبما يتركون لنا في ذاكرتنا - التي نتعاطاها بشراهة في غيابهم - وبما يشاركوننا به من بوح، وأسرار.

تقرّب الزهرة من بطنها لأشمّها، كانت بلا عطر، ونرسيس الذي حدّثتني عنه، عندما غرق في الماء وتحول إلى زهرة، كان مبهماً بالنسبة لي كلياً، بل ومضحكاً لهبله أيضاً.

في الحقيقة لم أكن أعرف نرسيس هذا، ولا إلى أيّ ضيعة ينتمي، لكنّي كنت أنتظر بلهفة أن ترفع زجاجة العطر الرّجالية التي أهداها إياها أبي فخر، لترشّ لي على بطنها كما عودتني، تعطّرني بالشانيل؛ عطر فخر اللذيذ.

رنين رسالة...

بمثل هذا الرّنين أعرف اتجاهاتي، رنّة رسالة من أبي فخر؛ إنّه ابن حلال، وعطره الشانيل ابن الجمال.

(- إن شاء الله، يصل بخير يا روح، لن أبعث شيئاً إلى بريدك الإلكتروني، بعد يومين أطمئنكِ بوصولنا إلى الضّيعة بإذن الله. انتبهي لنفسك وللبيبي، بحياتي).

- يا روح القلب أنت، أرجو أن تصل لقلبي بخير، يا رب، يا رب.

هذا هو أبي فخر، يتمنى السلامة لندّه رضوان، لا أعرف كيف يترفّع بهذه الطريقة، وكيف يدعو له بالسلامة، لا أعرف كيف يقبله وهو يقاسمه أمي.

كما أني لم أعد أعرف شيئاً عن أخبار الحرب، لا أعرف إن كانت قد هدأت أو انتهت، فهم ضجروا ربما من الحديث عنها.

تجلس أمي إلى جوار جدّي، ترى الكثير من الناس يهتفون ويهتفون، على الشّاشة، في جمعة، لا أحد يعرف اسمها.

تنظر في عيني جدّي ممدوح:

- هذه النّعاج حاجتها الأساسية الماء والغذاء. كلاهما امتصّ نار الثورة والقهر، تقول عن الناس نعاجاً ولا أراها تختلف عنهم في شيء.

يهزّ رأسه جدّي موافقاً، يعرف أنّ أيام الحرب الموصولة تجعل كل البشر يتوقفون عن إدراك كل ما هو جميل في الحياة، وتجعلهم يبحثون عن بقائهم فقط، الذي يصبح في الكثير منه أسطورة شخصيّة.

يقول لأمي:

- الصّمت والصّبر حكمتا الرّعيان، ورعياننا حنكتهم القتل والتعامي معاً.

تبتسم أمي، تصدّر لي نصيحة جدّي، بل حكمته بعد هذه السنين وقد تقلّب ومرّ فوق رأسه ثلاثة أو أربعة من الرعيان. أجوس المعنى في خاطري، لكنّني لست نعجة، ولا جملاً يا أمي، حتى إنّني أكره نظام القطيع كلّه، وأكره الجمال وغدرها، تصبر، تصبر، تصمت وأكثر، ثم تموت فجأة من دون استئذان.

إشارات العتمة (١٧)

كنتُ أنزّ تعباً وتعرقاً، عندما وضعتُ جهازي المحمول على طاولة مرتفعة في غرفتي بعيداً عن أمي، واسترحتُ بشكل جانبي لأبعد بطني عن الجهاز والطاولة معاً.

أشعر بثقل «البيك» في داخلي، أدرك أنه صار يعرف كل شيء حكتُه جيداً عبر الشهور الماضية، أعرف أنه متشوق لمعرفة أخبار أبيه فخر مثلي.

أجلس شغوفة لأعرف أخبار وصوله، فوجدتُ رسالته الطويلة:

«أيتها الحبيبة، الملكة، بتول، تكاد اللهفة تكتبني وأنا من كنت في تلك الوقفة في مطار الفجيرة - برفقة سعد، وبانتظار الرحلة المغادرة إلى دمشق – إلى وطني يا بتول أنا الذي لم أوقن يوماً بجدواه، صار قلبي وتراً، وهذه الضحكة البريئة لسعد وضوء عينيه المزغرد فرحاً يطلقان في نفسي رغبة مجنونة في الإقامة في هذا المطار بقية عمري، كي تبقى ضحكة سعد تسحّ على مدار الوقت، المطارات تضحك دائماً يا بتول في وجه العابرين.

سعد الذي كشف له الله أنّ الفرح - ربما - في عدم الإقامة في مكان واحد.

إعلان التوجه إلى بوابة المغادرة كإعلان اللحاق بالقلب دون متكأ.

تتسع روحي وأنا أسلم جواز سفري للمضيفة السمراء.

اللهفة؛ اللهفة لا تخطئ رسالتها التي تؤكد أنّ المكان والزمان والروح... وكل كينونتي أنت يا بتول.

رحلة الطيران في الجو وصولاً إلى من نحبّ، تشبه الجهاد في سبيل الحياة، ليعلن الصوت الآمر لربط الأحزمة وبدء الهبوط أنّ الحقيقة اكتملت وصولاً إليك.

صار الطريق - الممتد من مطار دمشق الدولي حتى ضيعتي في شرق المحافظة الجنوبية - ترجمان شوق، تطمئن جوارحي لكلّ اقتراب، يشتهي قلبي أن يرى بطنكِ المدورة، المنتفخة، التي بعثتُ فيها من روحي، قبل أن تلدي.

ليس في الوجود من هو أحبّ إليّ منكِ «يالبتول».

لم يكفَّ كريم - زوج أختي- عن الثرثرة طوال الطريق، وهو عائد بنا من المطار، باتجاه الضيعة.

كنتُ قد كلّفتُه باستئجار سيارة لنتنقل بها أثناء إجازتنا في البلد، وقد فعل ذلك بسرور، استأجر سيارة من مكتب في المدينة وذهب بها إلى المطار ليحضرني وعائلتي.

كريم يعطي بالكلام حقّ الوقت كاملاً، ومن دون حساب، يتطرّق إلى كلّ المواضيع من دون استثناءات، حتى وجبة الغداء الشهية التي تنتظر العائلة عند أم فخر، وشى بها كريم الثرثار. قلتُ له مازحاً:

(- ارتاح يا رجل، خلّي لسانك يرتاح شوي ولو، تعبت عنك).

ضاحك كريم، جميل كعادته، بسيط، عفوي، لحضوره حلاوة، لطيف في تقبُّل الآخر:

(- والله معك حق، نشّف ريقي، وأنا ألعي).

مدّ يده إلى مسجلة السيارة.

ليتكِ تعرفين يا بتول ماذا كانت الأغنية، نعم، يا حبيبتي، انداح صوت غادة شبير، أغنيتنا المفضلة:

(بدوّر على حالي بلاقيني فيك..

وشو بتعرف تمليني، وترسم ع حيطاني ضو شبابيك..

وتفوت ع مطارح كنت فيها موت.. تزرعني.. تسقيني.. تجمعني وتحييني).

اتسعت عيناي، ونطّ القلب، مرتعشاً على يدي المصادفة.

أعلم أنّ قلبي بين يدَيكِ يا بتول، كنا نسمعها معاً بلباقة عاشقين، كلّ منا في بلد.

ما أصعب أن يعيش القلب بلا سقف للهفته!! ما أصعب أن تكون الرّوح مكشوفة بلا جدران، تداري شوقها براحتيها فقط، ما أقسى أن يكون القلب نبياً في زمن ينكر الحياة والحب!

اتسعت نشوة القلب، وكلما اتسعت صَعُبت السيطرة عليه.

انتهت الأغنية، وبدأت مكادي نحاس بصوتها المترنّح شجناً..

(هذا الحلو قتلني يا عمّة)..

فككتُ أزرار قميصي العلويّة، الله وكيلك يا بتول، غسلني عرقي؛ وجود هذا الـ(سي دي) ليس مجرد مصادفة في مسجلة سيارة مستأجرة، بل هو مؤامرة فصيحة تشعل الشّوق.

كانت السماء تمطر شمساً، وكلّ الأغنيات في السيارة تتداعى تحت إمرة قلبي، وصولاً إلى غالية بنعلي؛

بكلّ صبحٍ وكلّ إشراق

أبكي عليكم بدمع مشتاق

قد لسعتْ حيّةُ الهوى كبدي

فلا طبيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شُغفتُ به

فإنّه رقيتي وترياقي..

جُنّ جنون قلبي وأنقذتني السيارة إذ وقفت أمام البيت الحجريّ، شجرة اللوز، شجرات الزيتون، البيت المسوّر بالأمان والبلوط من دون سور حقيقي، والمرأة القديسة محدّبة الظهر، أقرب إلى نسر عجوز، رغم اقتراب فنائه مترفع، أهكذا صارتْ أمي يا بتول؟ يصبح الآباء أيتاماً في غيابنا.

تنزل بكلّها إلى أرض الدار، تنحني لتقبّل التراب، عندما أنزلُ من السيارة، كبقعة ضوء أزلية الفرح.

كلّ لقاء من هذا النوع كان قاسياً عليّ، يذكرني بعقوقي، إذ تركتُ هذه الأم العجوز، وهذه البلاد قليلة الرّحمة، سخيّة الظلم.

ألملم أمي من فرط ركوعها، أقبّل رأسها، أبكي على كتفها، إنني غير قادر على صنع مصير ثالث لكلينا، هذه المرأة التي رفضت أن تغادر كرمها وزيتونها ودارها العتيقة برفقتي، مع سعد وزوجتي الصلفة؛ بعُرف أم فخر.

وأنا فخر الذي رفض البقاء في هذه البقاع المنهوبة، العارية، الكثيفة القهر.

(- شدي حيلك لشوف).

طالما خاطبتها كقديسة صغيرة، انهمرت دموعي لتكافئ غياباً طويلاً.

- يا ألله، حي الله، ضوّت الدّار يا إمّي.

تقترب من زوجتي، تقبّلها كما تقبّل قاتلها، هذه المرأة التي أطفأت خصوبتها بملء إرادتها عندما أنجبت سعداً بمتلازمته المتعبة.

أدمنت موانع الحمل، في محاولة مميتة لتكريس كلّ ما تبقى من عمرينا - هي وأنا - لسعد الصّغير.

كانت أمّ فخر تقول: (حرقتْ لي قلبي، هذي لا تخاف الله، تأخذ المحوق الذي للحمل لتحرمك الضنى؟)

أغمزها بطرف عيني، تضحك غمازتي التي تحبينها معي، ما زالت كما ترينها كروايةٍ بغلاف مشرقٍ على الواجهات- أحفظ غزلك كرج المي-... أقول لها:

- مانع حمل اسمه يا إمّي، ما كان على زمانك أنت والمرحوم أبي!!

- مهما كان، المهم بدها ما تحبل، لا ذمة ولا ضمير. الله لا يسامحها.

لم تكن علاقة أمي مع زوجتي أم سعد تستحثني لأصلحها فهي هكذا وستبقى. تشبعني أمي لوماً كعادتها في كلّ إجازة، وأشبعها حياةً وضمّاً، أمّا أمّ سعد لتشفى من حالتها المتلبّسة أمام عيني حماتها، كان يلزمها حالة توحّد عشقيّة مع أمومتها، ولا بدّ من قلبٍ صلدٍ كرخام قبر، كي لا يكشف عما بداخله.

أرض الزيتون المحيطة بالدار كانت ملجأ لروحي المترقّبة، التي تدق فيها كلّ طبول القلق ودفوف الشّوق.

حاولت انتهاز فرصة مواتية لأخبركِ أنني وصلتُ.

هذه السّريّة في التواصل عندما أكون بين أفراد أسرتي، وأنت يا بتول بين أحضان رضوان، تعادل المهام المستحيلة، والألوان المجنونة التي تحوم متداخلة كالدّبابير، من دون أن يتضح أحدها، فقط ضجيج توترها.

السّاعة الآن الثانية ظهراً، وصار العقرب الطّويل يتجه نحو الثالثة. انزلقتُ إلى قفا الدّار، حيث الحمام الخارجي وبضع شجرات من الزّيتون، ومساكب نعنع ذابلة في قيظ تموز.

تركتُهم جميعاً موزعين بين المضافة والمطبخ، يعدّون الغداء، ويزدحمون مع أحاديث الذي صار في فترة غيابنا الطويلة. لأتمكن من مراسلتك:

- صرنا بالضيعة يا قلب، طمئنيني، متعبة؟

ما كادت الرّسالة تصل حتى جاء الردّ راكضاً فاتحاً ذراعيه.

(- ألف الحمد لله على السلامة يا قلب، أنا بخير، بُكرة العملية - إن شاء الله - ثمانية صباحاً).

(- يا رب، قلبي مشتعل خوفاً عليك، يا بتول، أي مشفى؟).

- مشفى السلام.

(- يا رب أسألكَ السلامة، يا عمر فخرٍ وروحه أنتِ، سأكون قريباً، قريباً كثيراً).

(- ادعيلي، باي يا قلب).

.....

(- الله يخلص لي ياك بخير)

لم أستلم دعاءه، بقي الدعاء معلقاً كمغترب، لكنّه عرف التّفاصيل، وهذا هو المهم، هو الآن مريض بحدسه الذي يدق كإزميل ينذر بالسوء، لا يعرف لماذا، أما أنا فكنتُ أعرف أنني عبثتُ بحبكة الحياة لذلك ستفرد لي نصاً بنهاية مغايرة.

....

عدتُ إلى فتح الجهاز ليلاً:

ماذا يحدث في البلد يا بتول؟ أمضينا فترة العصر والسهرة في المضافة، كانت دوامة الحديث تدور حول بعض البدو في الضيعة وبعض الشباب من عوائل معروفة من بلدتنا والبلدات المجاورة،

وتجارة الأسلحة بالخفاء، وكثرة المنشقين الذي التحقوا بالجيش الحرّ، وصاروا دواعش على قومهم تحت مسميات لألوية تعتريها شبهة الجهاد المقدس، كيف يفعلون ذلك، ولماذا؟! هل يعقل أن كل هذا الجنون اختمر في غيابي!

لم يسكت كريم عن الثرثرة حتى أسكته:

(- خلصونا من السياسة، يا عمي نحنا قاعدين عاقلين).

ودّعتُ كريماً وأختي وأولادهما، إذ عادوا إلى بيتهم في الحارة القبلية، ومشيتُ حتى مدخل الدار وعدتُ، أكملتُ فترة طويلة من الليل على الرّدهة الشّرقيّة، أراقب التّلال، وحركة السّيارات المدرعة المتحركة باتجاه القاعدة شرقاً، وألوذ بصبري على وقتٍ شطط يعذبني بلا رحمة.

أشعر أن دهراً يفصلني عن شروق شمس الغد.

أحبّكِ.

قبل الضوء (١٩)

كان الوقت صباحاً، اقترب موعد خروجي القسري، وصرتُ على شفا اجتثاث من موطني الأصلي، سمعت أمي بتول تسأل جدّتي عن سبب انكسارها وتشتتها، فأجابت جدّتي أنّ قافلة من الشهداء قادمة من صوب إدلب.

كنتُ أوقن أنّ الكبار يكذبون كثيراً، تعلمت ذلك وأنا في صمتي العاري في بطن بتول، أحبّ كذب جدّتي أمّ أكرم، كذب هشّ، وغير مدروسٍ، وطارئ إسعافيّ، تستخدمه جدتي لتخفف من زخم الوجع أو لتأخر الإعلان عنه قليلاً. أشعر بانقباض في قلبي منذ الأمس، منذ أن سمعت رسالة فخر (راح كون قريب، قريب كثير).

جهّزتُ نفسي لأعيش جدليّة وجودي مُبرمجَاً على أب ليس أبي، هو رضوان، وأب حقيقي سيكون قريباً جداً، كما وعد أمي في رسالته، وعليه سأقيس حجم ازدواجيتي وفجيعتي.

الممرضة تهمس بلطف لأمّي، وتساعدها لتصعد على سرير العمليات المرتفع، تنزع عن أمّي ألبستها كلّها، وتنشغل بالبحث عن ضربات قلبي، التي ارتفعت لتملأ الغرفة، فتعثّرتُ بصوت قلبي قبل خروجي، وارتعبت من صداه الذي بدا عبر مكبر الصوت ضخماً قادماً من بئر سحيقة، لا أعرف لماذا يفعلون ذلك في غرفة المخاض إمعاناً في إثبات الحياة المطمورة قبل انبثاقها.

تقول للطبيب:

- كلّه تمام، دقات قلبه طبيعية، وضغط الأم طبيعي.

- وصل الدّكتور نبيل؟

- وصل.

دخل هذا النّبيل، سمعت حركة يديه خلف ظهر أمّي؛ يعطيها تعليمات متوالية عن خطورة التّخدير القطني، وضرورة أن تبقى ثابتة من دون أدنى حركة أثناء الحقن، وأن تخبره فيما لو ضاق تنفسها أو شعرت بأي شيء.

كنتُ أخاف على أمّي، أشفق عليها من وجعها، وأستكثر فيها الألم حتى لو كان ضئيلاً. فقد عانت الكثير وأنا برفقتها، بدأ من غثيانها وانتهاء بضخامتي. أما أنا فكنت أعتذر من رحم أمّي لأنني سأغادره، ثقل وزني أربكني، لم أستطع أن أودع كلّ زواياه التي كانت عزلاً أنيقاً، مليئاً بالرضا والدّفء، ومسبحاً عارماً بالتّجلي والسّلام والسّكينة والدفء طوال فترة حياتي الشرغوفية.

سمعتُهُ مجدّداً، يخيّرها للمرة الأخيرة بين التّخدير القطنيّ والتّخدير العام، وأنا لا أدرك شيئاً مما يقول، وهي تصرّ على التّخدير القطنيّ لتراني فور خروجي، وتقول له؛ إنها تريد أن تكون بكامل وعيها عندما يخرجني من بطنها...

لا أعرف، هل هي هذه القدرة العجيبة التي يسمونها الأمومة، أم أنّها ستؤكد لي أنّها ترابي، وأنّ الوطن - مجرّد أمٍّ - وأنّ الأرض والأمان هما فقط ما عشته (جوّاتها)، وأنّ الخطأ والصواب حقّان ستقنعني أن أمارسهما بكامل إنسانيتي عندما أشبّ، مثلما مارستهما هي بكلّ شغفها وجنونها.

كانت رائحة معصم أمّي شانيل؛ عطر فخر الذي أحبّه.

كنتُ أشعر أنّني يتيم عندما تمضي أمّي يومها ولا ترشّ لي رشّات من هذا العطر على بطنها ورسغها...

سكبت الممرضة والجرّاح الكثير من الكحول، الكثير من المعقم حادّ الرّائحة، وكلّما غابت رائحة الشانيل خلف روائح الكحول الواخزة، أغيب في ثنائيّة غريبة من اليتم والدّونية.

صرت أشعر بلكزات الطبيب لجسد أمّي، لفخذيها، لبطنها، لساقيها، وهي لا تشعر بذلك البتّة. هذا الطبيب سيخرجني وسينهي الحكاية، وحدها شريعة النمو تبيح له ذلك، من دون أدنى اعتبارٍ لي ولقلبي.

عندما تيقّن أنّها لم تعد تشعر بنصفها السّفلي، بدأ يرفع الستار عن تاريخي الأول، واقفاً فوقي تماماً.

ضوء غرفة العمليات موجه صوبي، والبطن يُشرّع جلده، يعميني الضوء، ويؤكد أنّ فراقي لهذه السّكينة حتميّ، وسينتصر.

سحبني دون رحمة مثل شعلة، ورفعني إلى الأعلى لتراني أمّي من خلف السّتار.

كنتُ لم أزل مغمضاً عيني، أرغم نفسي على ألّا أترك هذه العتمة اللذيذة، وأقيم سداً بيني وبين الوجود البارد خارج بطن بتول.

سمعتُ صوتها:

يا حبيب قلبي، يا روحي يا ماما..

في لحظة خروجي القسري القصوى، تلقّفني صوتها كهديل حمام، كما كنت أسمعه دائماً، ما أجمل صوت بتول! شعرتُ بجسدي على جسدها، لأوّل مرة ألامسها من الخارج.

شفطتِ الممرضة ما يسدّ كبريائي الصّامت من أنفي وحلقي، فصرختُ، صرختُ كأنّني سيد هذا العالم.

خرجت كما كانت تقول أمّي بتول دائماً، كأنّي (البيك).

دفتر سميح (٧)

في الحقيقة اضطررتُ هنا إلى ترك الكثير من الفراغ لأتمّ حكاياتي الممسوخة فيما بعد، وحكاية سارق المطر الذي تكاد رسائله تنقطع منذ موت ديمة، والذي عضّه الجمود ولفّته السكينة والعزلة منذ رحلتْ صبية القلب ديمة. لمّا يزل يبحث عن البداية بعيداً عن روحه / ديمة في تلك البلاد وكانت آخر رسالة أشبه بهذيان أو وداع مرجوج أو ندب، نسخته بحرفيّته هنا على أن أرجع إليه لاحقاً؛

سارق المطر (٦)

«لقد وقعتُ في حبّ حبنا يا ديمة، في حبّ حبّي لك وفي حبّ حبّكِ لي، أي والله هذا ما حدث حتى صرتُ عندما تغيبين دون مبرر وينال مني الزعل أجالسُ قلبي وقد استعرتُه منكِ فأسمعني:

أشــتهي منــكِ ذنبــاً أبنــي عليــه العتابــا

حتــى إذا كــان ذنــبٌ فتحــتُ للعــذر بابــا

أما هذه المرة فأي عذر هذا! وأي غياب!

سامحيني يا ديمة، سامحي «معتصم الهارب» لم أدفع عنك الموت، كنتُ بعيداً حتى عن بقايا جسدكِ.

ليس للعشّاق وزرٌ يا قديستي، صدقيني، لهم فقط حزن ينهك الروح والذاكرة..»

تركتُ بضع صفحات فارغة لموت قديم وشم قلب معتصم وفرح شحيح قد يزيّن دنياه بعد أن ترك البلاد. ذهبتُ إلى منتصف الدفتر لأدوّن هذه الصّفحات عن حكايات بالغة الملوحة والسواد والألم، سأكتفي هنا بهاتين الصفحتين على عجل لأننا في موسم المذبحة تماماً، وفي مواسم المذابح نكتب باقتصاد ونحزن بطريق عصيّة على النسيان وعلى الفهم وعلى الاستيعاب.

المذبحة التي ترافقت مع ولادة ابن أخي رضوان، المذبحة المروّعة في القرى الشّمالية الشّرقية من محافظتنا الجنوبية في هذه البلاد المنكوبة. التي لم تكن تشتهي أبداً مزيداً من الخيبات والموت. عزمتُ على إكمال هذه الأحداث عندما أُلملم حكايات أصحابها من

أفواههم، أو ممن شاهد الواقعة، وعاشها وسأسمّيها السّيرة الذّاتية للموت:

...

لم تكن المنطقة الشّرقية سوى زاوية أمان قريب للدواعش، يعيش فيها مدنيون مسالمون يعملون في الزراعة ويهتمون بماشيتهم، وهي في الوقت ذاته منطقة إمدادات؛ تؤمّن القوت والسّلام المؤقتين المرهونين معاً.

لم يشعر أهل البلدات المتاخمة للدواعش من الشرق برحيل العديد من البدو من بينهم- وكان معظمهم ممن يعمل بالتهريب مع شبان كثر من الضيعة، وكنتُ أعرف الكثيرين منهم معرفة شخصية- بين ليلة وضحاها، لكنّهم ولشدة فقرهم يؤمنون أنّ البخت هو الذي أقبل بوجود هؤلاء الدواعش، الذين لا يضرّونهم في شيء، ويبتاعون منهم كلّ شيء وبالدّولار، فاغتنى العدد الأكبر منهم غِنىً سريعاً، غريباً، فاحشاً وباعثاً على فرح غير شريف. فرح يشبه عقاباً يرميكَ به الله ويزيّنه في عينيك كي تتراجع أنت.

كان الكثيرون من أبناء ضيعتي يمارسون جرائمهم - مثلي أنا العسكريّ - بكامل الغباء والفرح والشعور بالنصر، فكلنا في هذه البلاد تنطبق علينا قاعدة «عديم ووقع بسلّة تين».

البدو إلى جوار الأهالي يعيشون بترقّب، فنحن كلّ واحد، ويخافون على بيوتهم وأرزاقهم وحيواناتهم، نعيش معهم كخليط متجانس يشاركوننا في كل شيء، ونشاركهم، ربما كان بعضهم لا يحبّون الإقامة، ولا يجيدون البكاء على أحد، ولا يمارسون السّياسة. وهذا تنوع يجعلنا معهم ككلّ شعوب الأرض فليس الجميع في كفّة ميزان واحدة.

كانت الظّلمة زرقاء، زرقاء حدّ القبح عندما بدأ هجوم الدواعش من الشرق - كما ذكر عمّي أبو أكرم نقلاً عن أهالي ضيعته - مستعينين

ببعض الخونة من سكان القرية، يدلونهم على البيوت ثم ينادون بأسماء أصحابها، وما إن يظهر صاحب الدّار حتى يردونه قتيلاً. تمكّنوا بعد دقائق قليلة من زرع خمس قنّاصات في مناطق وبيوت مرتفعة من القرية، تكشف مداخلها وطرقاتها الرّئيسة وكامل أراضيها.

دار أبي أكرم كانت مقفلة، فهو وخالتي أمّ أكرم عند بتول - زوجة أخي رضوان - في المدينة ينتظرون ولادتها. وقبل أن يبزغ سلطان النّهار التالي، كان هؤلاء الوحوش قد أسقطوا مئات الجثث في عدة قرى متجاورة، دخلوا الغرف، وقتلوا أصحاب البيوت وهم في فرشهم نيام، قتلاً شيطانيّاً يهرس الذاكرة حتى أعماقها ويستحيل أن ينسلخ عنها بعد ذلك.

يفتكون ويتصرفون كوحوش كاسرة، في بلاد ليست بلادهم، هؤلاء القادمون من أماكن بعيدة لا نعرفها، يتأبطون شياطينهم، وحوريات جنتهم، وتملكهم لمنابع آلة الموت، فكراً وسطوة بسلاح متطور ودعم مخيف.

استمرت المجزرة من قبل طلوع الفجر حتى ساعات متقدمة من نهار اليوم التّالي، وقتئذٍ بدأت الاستغاثات تلعلع في كلّ مكان من جبل العرب.

ما إن وصل الخبر إلى مدن الجبل وقُراه، حتى رُفعت بيارق الحرب، وركب الرّجال وكلّ شاب بغض النّظر عن صفته وانتمائه السّياسي، ومن دون اكتراث بعمره وامتلاكه السّلاح، أو عدم امتلاكه، فالبعض صعد ملبياً نداء الفزعة بالعصي والسكاكين، وتوجّهوا صوب الشّرق، باتجاه القرى التي تتعرض لهذا الذّبح التّتري.

كانت المستشفيات العامة والخاصة والمستوصفات في كلّ أنحاء المحافظة تعجّ بالجرحى والجثث والإصابات البليغة، فقد بدأت تصل مع ساعات الصّباح الأولى.

اتسعت دائرة الموت والخبر معاً.. تكدّست الجثث في المستشفى الوطني وسط ذهول واستهجان مخيفين وصرخات تعلو (.. يا حيف، يا باطل)

اتصل بي أبو أكرم وأخبرني بالمصيبة، وقال إنّه ترك أمّ أكرم ورضوان وبتول في مستشفى السّلام وتوجه إلى المستشفى العام، ليعرف ماذا حصل، وليقدّم المساعدة التي يستطيع.

توجّهتُ مع جوريّة إلى مستشفى السّلام، رغم الصعوبة في تحركي على الكرسيّ ذي العجلات لكني عزمت على الذهاب.

وجدنا بتول في الدّاخل تستعدّ للعملية القيصرية.

أمّ أكرم تفرك كفّيها، بانتظار بتول، تبدو عيناها مسربلتين بالوجع والفاجعة والألم. صارت تبكي بصوت مسموع فقد وصلت ثلاث جثث إلى مستشفى السلام وخالتي أم أكرم في الطابق السفلي، إحداها كانت لامرأة وُضعت على نقّالة ووقع غطاء رأسها والممرضون يحملونها إلى براد المستشفى، شعرت أم أكرم أن ملامح المرأة مألوفة، وأنها تعرفها، لحقت بالممرضين تستوقفهما لتتأكد، وعندما أيقنت أنها مزيونة، مزيونة البدوية الجميلة، الصادقة أجهشت أم أكرم في البكاء وهي تردد: «يا غبنك يا بنيتي، يا ضيعان شبابك يا حبيبتي».

أمّا رضوان فكان كالقابض على جمرٍ، غير قادر على مغادرة المستشفى، وقد اشتعل صدره بنبأ المجزرة.

ردّة الفعل العفوية والرجوليّة هذه للدفاع عن الكرامة والعرض والأرض من قِبل رجال الجبل وشبانه كانت تعني أنّ نصف المعركة معجونة بالخسارة الفادحة، فقد سقط الكثيرون منهم على مداخل الضّياع بنيران القنّاصة. كان البدو جنباً إلى جنب معهم يقاتلون ويردون على الضيم بما يملكون من أسلحة وبنادق. هو الموت يفتح فماً عظيماً، والأرواح تعانقه أكثر فأكثر، وهو يطلب المزيد.

كانت هناك محاولات لحلّ الخلاف بقليل من الغنج، دون أن اندلاع جبهة ساخنة في الجنوب.

وصل الجيش الذي انسحب الكثير منه منذ فترة وجيزة، تاركاً المنطقة الشّرقية كلّها في مرمى الفك المفترس الرّابض في التّنف، وفي مرمى مئات الأسئلة، التي انطلقت باستنكار ووجع وإدانة لا رادّ لها.

تأخّر الجيش حتى وصل إلى الضياع المهزومة، نعم تأخر كثيراً بعد أن كان رجال الجبل قد حسموا المعركة لمصلحتهم، وبعد أن أعلنت المحافظة الجنوبية عن فجيعتها وعن موت المئات من الرّجال والنّساء والأطفال وخطف أكثر من ثلاثين امرأة وطفلاً.

لم يقدر أحد على استيعاب وصياغة سيناريو ساعة الغفلة هذا.

رجالات الفزعة - هذا هو اسم الرّجال الذين أقبلوا على الموت كالأسود - كتبوا تاريخاً ستتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، للبطولة هنا...

لكنّ الموت سدى كان قد نما وزُرع في كلّ البيوت، وفي جنبات هذه البلدات المتطرفة في الشرق، وقد ضرب بسيفه حتى النّخاع، وأفرغ العديد من البيوت من سكانها، فصارت مهجورة بشكل كامل.

بعد الضوء

ضمّني رضوان، لم أصرخ، حملني، وفي عينيه زنزانة، تأسر حزناً وقهراً هائلين، لا أعرف متى يطلقهما، لأول مرة أرى عيني رضوان، نظرته قاسية تشبه صوته، وضع فمه في أذني اليمنى وصار يقول:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

لم أعد أسمع شيئاً، كان صوته غير مفسرٍ.

رغم كل محاولاته ليكون أباً لطيفاً، يناغيني ويرحّب بي، يرقّق نغمة صوته، أميل عنه وأغمض، ليسامحك الله يا بتول؟ كيف سأعيش مع رضوان وهو بهاتين العينين مثل رصاصتين وبهذا الصوت مثل لفح البرد.

كنتُ على سرير أبيض، وشربت القليل من حليب بتول بعد أن دارتني إلى صدرها.

وضعتني جدّتي أمّ أكرم إلى جوار أمّي، كانت طوال الوقت تدمع عيناها، وأمّي تقول لها:

- أنا بخير، انظري هذا الشابّ ما أحلاه! من دون أن تعلم ماذا حلّ بالضيعة وأهلها. خمّنتْ أنّ دموع جدّتي من جرّاء قلقها عليها وهي في غرفة المخاض.

بين ذراعي جدّتي كنت أستقبل بسملتها، واعترافها بأنّني طفل مشؤوم، فمجيئي ترافق مع مجزرة للآدميين والأبرياء، ذهب ضحيتها المئات.

أبي المزعوم رضوان يساعد أمّي كي تنهض، تسأله عن جدّي ممدوح، فتقول جدّتي إنّه سبقنا إلى البيت، وهو رجل كبير لا يطيق الجلوس في المستشفى.

كذب جدّتي نافذتي الصّغرى التي تطلّ على عالم مقطّع الشرايين.

تتعلّق أمّي برقبة رضوان، يساعدها على النهوض، ما إن تنهض وتتعلّم المشي من جديد بعد التّخدير القطني، دون وجودي (جوّاتها)، حتى نصير قادرين على مغادرة المستشفى.

طلبت الطبيبة أن يأخذوني إلى المستشفى الوطني لآخذ لقاحي الأول، مُشكّكةً بقدرتهم على ذلك بسبب ما يحدث في الخارج.

...

على كرسيّ بلاستيكي كانت تجلس عمّتي جوريّة، حملتني وكأنّها على سفر. أمضيت الوقت مُغمضاً، ليس لديّ رغبة في رؤية أحد بعد أن صعقتني عينا رضوان.

عضّت جدّتي لها على شفتها، كي لا تخبر أمي بشيء عن أنباء المذبحة فيهرب حليبي إلى الأبد.

قال رضوان سنبقى حتى صباح الغد هنا، (لترتاح بتول وللاطمئنان أكثر على البيبي).

كان حضن جوريّة مثل النهر في الضيعة، يجرفني، تمشي بسرعة مثل جريان الماء، تسرع بي نحو مركز اللقاح، نصعد في سيارة رضوان، التي حرص على أن تكون دافئة ومريحة ومغلقة النوافذ.

لفّتني جيداً وغطت جسمي الصغير في حجرها.

على باب المستشفى كان يستحيل الوقوف، فالبشر مكتظّون، يتلقّون أخبار موتاهم ويتأكدون من حياة بعض الجرحى ونجاة بعض المصابين. صراخ مختلف يجمعه ألم واحد.

توقّف أبي هناك قليلاً ثم عاد أدراجه.

قال لعمتي جوريّة: (مستحيل أن ندخل في هذه المعمعة، دعينا نذهب الآن، وبعد بضع ساعات نرجع إن شاء الله، لنرى ماذا يمكن أن نفعل).

فتح شبّاك السّيارة وأخذ ينده: عمّي، عمّي!

أقبل جدّي ممدوح، عرف أنّني ولي العهد، وأنّهم قدموا بي لآخذ لقاحي الأول.

- يا عمّي طمّئننا، أرجوك. ما الذي حدث؟ سأله أبي.

سمعت بكاء جدّي ممدوح، كان واضحاً كرائحة الموت التي عرفتها من قبل عندما مات محمود زوج اعتدال وأنا مع بتول في المستشفى:

- يا باطل... يا رضوان يا باطل... لا حول ولا قوة إلا بالله، والله يا عمي مصيبة يا رضوان، تسعة وأربعون شاباً من ضيعتنا، الله يثبت العقل والدين علينا، الله يجبر صواب أهلهم، الله يقدر على الصبر يا ولدي.

من أيّ جهنم جاءت كلّ هذه المصائب، بتول كيف حالها؟

فتحت عمّتي جوريّة الشبّاك من جهتها، ليراني جدّي ممدوح، وليتذكر أنني جئت إلى الحياة الدنيا، ما أبخسه من مجيء!

- يا عيون جدّك، ما أضيق هذه الدّنيا يا جدّي!

بسمل وبارك، قبّل رأسي...

أخبره أبي أنّنا سنبقى في المستشفى حتى صبيحة اليوم التالي.

لا أعرف ما الذي كان يشدّني للدخول إلى المستشفى العام، رغم ذكرياتي السيئة معه، لا أعرف لماذا؟ ليس لدي رغبة للرجوع إلى حضن أمّي، كنتُ قلقاً، وقد ودّعتُ كيسي الجنيني وأماني منذ أن أخرجني ذلك الطبيب الأحمق بيديه القاسيتين من جوف أمّي بتول..

قالت عمّتي جوريّة:

- حاول يا رضوان، قسم الحاضنات والولّادات لا يذهب إليه الموتى والجرحى، حاول لنعطيه اللقاح الآن، هذا طفل، عمره ساعات فقط، لا نقدر أن نخرج به في كلّ حين..

عاد أبي ليدخل المستشفى من الباب الآخر، الخلفيّ بعيداً عن قسم الإسعاف وممرات المستشفى المزدحمة، رأى ممرضاً ورجل شرطة:

- الله يوفقك، معي طفل حديث الولادة، يحتاج لقاحاً، دبّرنا.

دسّ أبي في جيب الممرض نقوداً فضحك مثل ضحكة مصلح الذي تفّ جدّي وراءه عندما رآه:

- تعال معي من هون.

مشينا في ممرّاتٍ بعضها مضاء والآخر معتم بشكل كامل، مع هذه الفوضى يستحيل أن يتحدد أيّ شيء.

كانت عمّتي جوريّة كلّما مررنا إلى جوار جريح تستفيق فيها غريزة التّوثب، وكأنّها ستقفز فوق موت الجثث ووجع الجرحى، فأزداد اهتزازاً بين ذراعيها.

وصلنا إلى قسم الحاضنات، في آخر الممر وهناك حلّ صوت الممرض محلّ القانون، أخذت الممرضة البشعة، لا أعرف إن كانت هي بشعة أم العتمة جعلتها بهذا الوجه القاحل، أخذت البطاقة من يد الممرض، فتحت الباب، أخذتني وحدي، ثم صفعته في وجه عمّتي جوريّة وأبي رضوان، وظلّا ينتظرانني في الخارج.

سقطتُ في درك البشر، ووجودهم المحفوف باللّقاحات من أجل البقاء، فلن تقوم لي قائمة قوّة بعد ذلك أبداً.

كنتُ في الحقيقة حياة، والحياة تخفي دائماً في داخلها نقيضها. عدتُ إلى ذراعي جوريّة، ولم تجفّ دموعي العاهرة بعد، كانت تجربة

الثقّب الأولى بالنسبة لي، هذا الثّقب الذي سيرافقني إلى ما بعد ظهيرة عمري، عندما أعلم أنّني أخذت لقاحي الأول لأحافظ على حياتي في يوم المجزرة التي أُزهقت فيها حيوات كثيرة.

كان النّوم هو الوحيد القادر على ترويض بكائي، وتهذيب هذا الصّراخ المبالغ فيه، والذي يخرج حانقاً من فمي.

مشاهد الجثث تنعكس متأرجحة في عيني عمّتي جوريّة العسليتين. في آخر الممر - ونحن نغادر مكان ثقبي الأوّل - انعكست في عيني عمّتي صورة جثة ملقاة على الأرض، برأس مدورة، وجسد طفولي قصير وسمين... تمتمتْ: (الله يساعد قلب أمه)..

شعرتُ بأكثر لحظاتي وحشة منذ بزوغي من بطن بتول، اعتصر قلبي كثيراً، شعرتُ بألم كبير لا يتوافق مع قلبي الصّغير، وربما كان أكبر من أن يتحمّله إنسان حتى في شيخوخته.

...

نمت كثيراً أو ربما قليلاً، لا أعرف..

كنتُ أفتح فمي، أتحصّن برائحة ثدي بتول أمّي، أحاول أن أثبت لهم صدق مشافهتي للحكاية، التي أرويها كما عشتها والتي سيغدر بي القلم فلا أكتبها فيما بعد كاملة.

سميح قبالة أمّي، يضحك بعينين كاتمتين لكلّ ما في خاطره، ويخفي ساقه المبتورة التي تصيب أمي بالغثيان بكتابٍ وضعه فوقها.

جوريّة تتحدّث همساً مع جدّتي أمّ أكرم، أحببتُ صوتها وعينيها العسليتين.

لفتات أمّي القلقة وهي تبحث عن هاتفها المحمول تخطفني من غفلات الوسن فأفتح عيني أراها ثم أغمضهما مجدداً.

دخل رضوان، وضع على الطّاولة العالية إلى جوار سريرنا أنا وأمي مفتاحاً وكيساً، جلس إلى جوار عمّي سميح الذي سأله همساً:

(- مشي الحال، أحضرت السّيارة؟ سمحوا بدخول الضيعة؟)

(- ايه، سمحوا، رحت وجبتها بالمفتاح الثاني، أخذته من صاحب المكتب، مين كان عارف راح يستأجرها رجل من الضيعة، وتصير هذي المذبحة...

- مات المُستأجر؟ سأله عمي سميح.

- (مات، ليساعد الله النّاس جميعاً، البارحة وصل هو وزوجته وابنه من الإمارات، جاء ليموت عندنا... تخيّل أنه لم تصب السيارة رغم كل الرصاص والفوضى ولو بخدش صغير، وجدتها أمام بيت المستأجر- رحمه الله- لقيت أغراضاً، لكن لم أجد من أعطيه إياها من أقربائه، واتفقت مع صاحب المكتب أن يعيد لهم الإيجار كاملاً وسيرى عمّي أبو أكرم كيف سنساعد الناس في هذه المصيبة)

- لا بأس نسأل غداً عنهم، المهم، اللهم صبرنا على بلوانا، وبرّد قلوب المفجوعين. يتنهد عمي سميح ثم يضيف: وأنا معي مبلغ كبير أرجو أن تتصرف به لصالح هؤلاء يا رضوان، فأنا لا أستطيع أن أتحرك.

الجوع يشدّني إلى ثدي أمّي بتول لأنام، صرتُ أرضع من حلمتها، وأمرر لها أنّ الغفران والحبّ غير مأمونين أبداً، فلا تعترفي يا بتول، أرجوكِ، ولا تحبّي مجدداً.

أحتاج إلى إنسانيتي كاملة بلا حرائق الموت هذه، أنا ابن حرامٍ، جئتُ بصكّ خاضع للحبّ، لماذا فعلتِ هذا بي يا بتول؟ وأتيتِ بي إلى بلدٍ سلبتني انتمائي، وكل بؤبؤ فيها هاجس من موت وقلق.

تدمع عينيّ وأنا أحضن بهما كيساً وُضع على الطاولة إلى جوارنا؛ فيه علبة عطر شانيل، وبارودة بلاستيكية.